الفصل الثامن

حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع
الفن جولدنر والنقد السوسيولوجى

مقدمة :

كان ميلز يساهم باتجاهه النقدى المبكر فى الوقت الذى كانت فيه العوامل البنائية والتاريخية التى أدت الى ظهور الاتجاهات النقدية المعاصرة فى طريقها الى الاكتمال . والمحقق أن أفكار رايت ميلز قد ساهمت مع هذه العوامل البنائية والفكرية وتفاعلت معها لتظهر اتجاها جديدا . ويتبنى هذا الاتجاه الجديد حركة تجديد ونقد واسعة النطاق لعلم الاجتماع من اجل تغيير مساره المرتبط بمشكلة النظام ، ومن أجل توسيع أهدافه لتصبح أهدافا أكثر انسانية ، وليتفادى كل أوجه القصور التى لحقت به من جراء ارتباطه الشديد بالأيديولوجية المحافظة. فحركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع لاتهتم بتقديم بدائل نظرية ولكنها تهتم اساسا بتقديم مسار العلم وتصحيحه ليحقق أهدافا جديدة اكثر تحررا وانسانية . وفى اطار هذا الاهتمام بتصحيح مسار العلم تظهر بعض الآراء والتصورات عن الأسلوب الأمثل لهذا التصحيح تختلف باختلاف العلماء . اذ لاشك أن هناك الكثير من العلماء الذين ساهموا فى هذه الحركة : فكل من عارض التيار الكلاسيكى المعتد من كونت الى بارسونز والمرتبط بمشكلة النظام ، كل من عارض هذا التيار ينتمى بشكل او بآخر الى حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع (١) وبناء على ذلك لابد أن تتعارض الآراء وتتعدد داخل هذه الحركة ، رغم اجماعها على هدف واحد .

---

(١) وهنا تظهر الصلة الوثيقة بين دراسة مشكلة النظام وبين دراسة =

ولكن مهما تعددت الآراء والاتجاهات فاننا يمكن أن نضمها تحت اتجاهين رئيسيين : الاتجاه الأول اتجه الى العلم ذاته ، فبدأ يفند نظرياته ومفاهيمه ومناهجه ، وبحوثه . ويحلل تطور العلم فى ارتباطه بالأبنية التاريخية والاجتماعية ، ويشخص أزمة العلم ، ويقترح الأساليب الممكنة لتصحيح مسار العلم الاجتماعى ليتخطى أزمته الراهنة . ويمكن أن نسم هذا الاتجاه بأنه نقد سوسيولوجى أو نقد من الداخل . أما الاتجاه الثانى فانه لم يكتف بالنقد السوسيولوجى ، بل كرس جهوده لربط هذا النقد السوسيولوجى بنقد المجتمع . وهو فى ذلك يقتفى أثر رايت ميلز ، ويمكن أن نسم هذا الاتجاه بأنه نقد اجتماعى أو امتداد لرايت ميلز فى التراث المعاصر . ويمثل الاتجاه الاول الفن جولدنر A. Gouldner . أما الاتجاه الثانى فتمثله الآراء المحدثة لكل من توماس بوتومور وجون ركس وبعض الاتجاهات النقدية فى فرنسا وايطاليا . وسوف يكرس هذا الفصل لمعالجة الاتجاه الأول ، على أن يكرس الفصل القادم لمعالجة الاتجاه الثانى .

وفى معالجتنا لآراء الفن جولدنر — الذى يمثل تيار النقد السوسيولوجى فى حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع — سوف نهتم اساسا بالآراء النقدية التى جاءت فى كتابه « الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى » (٢) وما تلاه من بحوث ودراسات ، غير اننا لانستطيع ان نعالج هذه الآراء بمعزل عن آراء جولدنر السابقة حيث ساهمت تلك الأخيرة فى تشكيل الكثير من آراء جولدنر النقدية . ومن ثم سوف نتناول آراء جولدنر من خلال العناصر التالية:

= الاتجاهات النقدية . فالاتجاهات النقدية ما هى الا نقد للحلول التى قدمت لهذه المشكلة . وقد يتضمن النقد فى الكثير من الاحيان رفضا لهذه المشكلة كمشكلة أساسية تتبلور حولها نظريات علم الاجتماع ومفاهيمه .

(٢) Alvin Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology. Heimann, London, 1970.

وسوف نستخدم كلمة « الازمة القادمة » للاشارة الى هذا الكتاب على طول هذا الفصل .

اولا : الارهاصات النقدية فى أعمال جولدنر المبكرة .
ثانيا : أزمة علم الاجتماع : الموقف والحل .
ثالثا : جولدنر فى مواجهة نقاده .

اولا ــ الارهاصات النقدية فى اعمال جولدنر المبكرة :

لم يحظ اى كتاب ــ منذ بداية السبعينيات وحتى الآن ــ بنفس الشهرة التى حظى بها كتاب الفن جولدنر « الازمة القادمة » . فقد أثار هذا الكتاب الكثير من الموضوعات والقضايا التى قلبت علم الاجتماع الغربى راسا على عقب ، وفتحت الطريق امام ضروب عديدة من الجدل والنقد واعادة الصياغة فى الكثير من المسلمات التى فرضت نفسها لفترات طويلة . ولقد أثار هذا الكتاب الكثير من الاستجابات التى تراوحت بين القبول والرفض ، والاستحسان والاستهجان . ذلك لانه يمثل نقطة تحول هامة فى علم الاجتماع : فقد أثار من جديد الكثير من القضايا والمسائل التى تركت دون اثارة منذ رايت ميلز ، وجاء معبرا عن احساسات ومشاعر جيل جديد من النقاد افرزته احداث مايو ١٩٦٨ ، بالرغم من أن جولدنر نفسه لا ينتمى لهذا الجيل ، بحيث يمكن القول مع جون رودزJohn Roadz بأن كتاب « جولدنر » سوف يؤثر تأثيرا كبيرا على تطور النظرية السوسيولوجية فى المستقبل (٣) .

غير اننا لا نستطيع أن نستفيض فيما جاء فى كتاب « الازمة القادمة » بمعزل عن دراسات جولدنر السابقة على هذا الكتاب . فهذه الدراسات تكشف عن جوانب تقدمية تعد بمثابة القنوات الاولى التى افضت به الى راديكالية « الازمة القادمة » وربما كانت احداث التمرد والعنف بكل ما اتت به من تحديات بنائية وفكرية عجزت امامها كلاسيكيات علم الاجتماع

---

(٣) John Rhoads, «On Gouldner Coming Crisis of Western Sociology», A.J.S., Vol. 78, No. 1, 1972, p, 136

الغربى ، هى التى فجـــرت داخله كل الطاقة الراديكالية التى ظهرت فى كتاب « الازمة القادمة » .

تكشف الاعمال المبكرة لالفن جولدنر انه ينتمى الى الاتجاه البنـــائى الوظيفى . فقد اهتم فى هذه الدراسات بدراسة انماط البيروقراطية حيث فرق بين نمطين رئيسيين للبيروقراطية : الاول يتصف بالطابع الجـــزائى او العقابى ، ويعتمد على مجموعة من القواعد التى تدعم ذاتها وتمنح نفسها طابعا شرعيا . والثانى يتصف بالطابع التمثيلى ويعتمد على مجموعـــة من القواعد يتم الاتفاق عليها بطريقة ديمقراطية وتستند الى تأييد جماعى من جانب الادارة والعمال . وكلا النوعين يساهم فى النهاية فى تحقيق درجـــة عالية من الضبط والتكامل داخل التنظيم(٤) . وتكشف وجهة النظر هذه عن انتماء واضح للنظرية البنائية الوظيفية . غير ان جولدنر ما لبث ان بدل هذه الآراء وبدأ يوجه النقد للاتجاه الوظيفى الذى انتمى اليه فى بداية حياته . فقبل ان ينتهى العقد السادس الذى ظهرت فيه هـــذه الاعمـــال المبكرة ، كتب جولدنر يهدم الكثير من آرائه الوظيفية . ظهر هذا النقد فى مقالين نشرهما عام ١٩٥٩ احدهما بعنوان « التحليل التنظيمى » (٥) ميز فيه بين نمطين من التحليل : الاول هو نمط الرشد (وتعبر عنـــه نظـــرية فيبر الكلاسيكية) ، والثانى هو نمط النسق الطبيعى (وهو يسعى الى

---

(٤) انظر :

A. Gouldner, **Patterns of Industrial Bureacracy**, Glencoe, Ill, 1954

A. Gouldner, Wildcat Striks, Yellow Springs, Ohio, 1954

A. Gouldner, «Metaphysical Paths and the theory of Bureacracy» **A.S.R.**, Vol. 49, 1955, pp. 496—507

وانظر عرضا نقديا لهذه الاعمال فى المصدر التالى :

السيد محمد الحسينى ؛ النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ص ٩٧ — ١٠٢ .

(٥) A. Gouldner «Organizational Analysis», in : R. Merton (ed) **Sociology Today**, Basic Books, New York, 1959

التعرف على كيفية تدعيم التنظيمات لنفسها وضمان بقائها . وذهب جولدنر الى أن نموذج النسق قاصر الى حد كبير ،لانه يقلل من أهمية السلوك الرشيد فى التنظيمات ، كما انه لا يسمح بدراسة طريقة تأثير الافراد فى التنظيم ، هذا فضلا عن تأكيده على التكامل دون تفسير الفروق بين التنظيمات فيما يتعلق بهذا التكامل ، ودون الاهتمام بالاختلاف الذى قد ينشأ حول أهداف التنظيم ، أو تعارض مع الأهداف المجتمعية . والمحقق ان هذا الراى يكشف عن تخلى جولدنر عن فكرة الضبط والتكامل التى اهتم بها فى دراساته المبكرة .

وتدعمت هذه الآراء التقدمية من خلال مقال آخر نشر فى نفس العام ، (٦) انتقد فيه جولدنر الوظيفية لاغراقها الشديد فى الاهتمام بعلاقات الاعتماد المتبادل بين الاجزاء ذلك الاعتماد الذى يكسب النسق توازنا ومحافظة على ذاته ويجعله يتغير فى أضيق الحدود ، بالرغم من أن مفهوم التوازن نفسه يختلف عن مفهوم الاعتماد المتبادل.وناقش جولدنر التناقض الذى يمكن أن يحدث بين الاستقلال الوظيفى Functional autonomy والاعتماد المتبادل بين الاجزاء Interdependence ، فاذا كان النسق يكشف عن علاقات متبادلة بين أجزائه ، فانه قد يكشف فى ذات الوقت عن استقلال نسبى بين أجزائه ، حيث نجد أن كل جزء قد يرتبط بجزء آخر من أجزاء النسق ، وليس بأجزاء النسق كلها . وهكذا يمكن رؤية الاعتماد المتبادل لا من خلال العلاقة بين الاجزاء ،ولكن من خلال درجة استقلال الاجزاء عن النسق . وبناء على ذلك يمكن القول بانه كلما زاد الاعتماد المتبادل بين الاجزاء ، قل الاستقلال الوظيفى ، والعكس اذا انخفضت درجة هذا الاعتماد . واعتقد جولدنر أن التركيز على الاستقلال الوظيفى داخل النسق

---

(٦) A. Gouldner, «Reciprocity and Autonomy in Functional Theory» in : L. Gross (ed) **Symposium on Sociological theory**, Row, Peteron, and Co., New York, 1959, pp. 241—270

ـــ والذى اهمله الوظيفيون ـــ يتيح امامنا فرصة تحليل التوترات داخـــل الانساق ، وكذلك تحليل التغير الاجتماعى . فالاجزاء التى تحقق درجة من هذا الاستقلال سوف تقاوم التكامل الكلى داخل النسق الاكبر ، كما أن النسق ذاته قد يخبر انقساما بين أجزائه فى ضوء متطلبات المكانة التى تحتلها أجزاؤه . وهكذا ينشأ توتر بين الجزء الذى يرغب فى تحقيق الاستقلال، وبين النسق الذى يرغب فى ممارسة الضبط والرقابة على هذا الجزء . هذا فضلا عن أن أجزاء النسق التى تحقق قـــدرا من الاستقلال الوظيفى تمتلك امكانيات توليد انماط من التغير استجابة للتوترات والصراعات التى يخبرها النسق . وبالرغم من أن مفهوم الاستقلال الوظيفى الذى طرحه جولدنر فى هذا المقال يعد مفهوما وظيفيا ، الا انه استطاع أن يستخدمه فى نقد الوظيفية وفضلا عن انه نجح فى أن يقنعنا بأن للمفهوم قدرة تحليلية تنقلنا عبر مستويات مختلفـــة ، وتتفادى بعض أوجـــه القصور التى وقع فيها التحليل الوظيفى الشمولى (الكلى) .

والحقيقة اننى أعتبر مقال جولدنر السابق نقطة تحول هامة فى تفكيره فالنقد الذى جاء فى هذا المقال أكثر جدة ودقة من نظيره الذى جاء فى مقال « التحليل التنظيمى » . ويدعونا هذا الى القول بأن جولدنر قد اندفع فى عام ١٩٥٩ اندفاعا شديدا نحو التحول عن مسار التيار الوظيفى ، وكان ذلك اساسا للاندفاعة الراديكالية عام ١٩٧٠ . ولكن ما هو الاتجاه الفكرى الذى تبناه جولدنر فى حقبة الستينات الفاصلة بين المرحلة الاولى والمرحلة الثانية من تفكيره ؟ يمكن القول بأن اعمال جولدنر فى الستينات قد تميزت بخاصيتين على جانب كبير من الاهمية :

الاولى : انها كانت اعمالا نظرية خالصة ، ونقدية خالصة . واتجهت اساسا نحو اثارة بعض القضايا النقدية وطرح بعض الافكار ولكنها لم تصل ابدا الى حد النظرية النقدية المكتملة .

الثانية : أن القضايا والافكار التى ناقشها جولدنر فى هـــذه الفترة ترتبط ارتباطا كبيرا بالقضايا التى ظهرت فى كتابه « الازمة القادمة » الامر

الذى يؤكد ما نذهب اليه هنا من أن هذه الارهاصات النقدية كانت الاساس الذى كون عليه جولدنر نظريته النقدية فيما بعد .

القى جولدنر فى اغسطس ١٩٦١ كلمة افتتاحية فى الاجتماع السنوى « لجمعية دراسة المشكلات الاجتماعية » ، وقدم فى كلمته مقاله الشهير عن « خرافة التحرر من القيم فى علم الاجتماع » (٧) . تعرض فيه بالنقد لمبدأ التحرر من القيم value-free الذى صاغه ماكس فيبر . والمقال لا يعتبر هجوما على ماكس فيبر — الذى يعد جولدنر احد الثقاة فى دراسته — وانما يهاجم الفهم المعاصر لدعوى الموضوعية والتحرر من القيم فى دراسة المجتمع. فالقارىء لهذا المقال يستطيع أن يلمس بوضوح اصرار جولدنر على التفرقة بين فهم ماكس فيبر للموضوعية والتحرر من القيم والدور الذى ساهم به هذا المبدأ فى خدمة العلم ثم الفهم المعاصر له .

(ا) فقد صاغ فيبر هذا المبدأ ليضمن استقلال وحرية العمل فى كل من الدولة التى تعد أداة المانيا لتحقيق السيادة القومية ، وبين الجامعة — التى تجسد التراث الغربى لنزعة الترشيد . فقد كان فيبر يتخوف من أن يؤدى التعبير عن الاحكام القيمية والسياسية من خلال الجامعة الى أن تنصب الدولة من نفسها مراقبا على الجامعة ومن ثم تفقد تلك الاخيرة استقلالها » .. لقد كان فيبر يحاول أن يضبط التوترات بين تراثين حيويين فى الحضارة الغربية : بين العقل والثقة Faith ، بين المعرفة والعواطف ، بين الكلاسيكية والرومانسية ، بين الراس والقلب . ومثله مثل فرويد لم يعتقد ابدا فى وجود سلام او حل نهائى لهذا

---

(٧) A. Gouldner, Anti-Minotaur : The Myth of Value-Free Sociology, First Published in **Social Problems** 1952. Reprinted in : Jack-Douglas (ed) The **Relevance of Sociology**, Meredith Corporation, New York 1970, pp. 64—84.

الصراع . وكل ما فعله هو انه حاول ان يخلق هدنة بينهما من خلال فصلهما ، بأن يخصص لكل منهما مجال مختلف من مجالات الحياة » (٨) .

(ب) وقد قام مبدأ التحرر من القيم بدور كبير وهام فى علم الاجتماع حيث ساهم فى استقلال العلم من قبضة المجتمع ، فتحرر فى أوروبا من تأثير الأحزاب السياسية ، وفى امريكا من تأثير الحكومة . بذلك يكون هذا المبدأ قد ساهم فى التطور الفكرى لعلم الاجتماع وتحريره «لقد ساهم مبدأ التحرر من القيم فى تقوية دور العقل فى مواجهة المتطلبات الجدية للاخلاق التقليدية .. وفى مساعدة الافراد على التفرقة بين دوافعهم العقابية punitive وبين مشاعرهم الاخلاقية .. ان مذهب التحرر من القيم يمكن ان يكون فرصة لتكوين اخلاق علمية اكثر اصالة » (٩) .

(ج) ولكن رغم هذا الدور الذى لعبه مبدأ التحرر من القيم الا أن الفهم المعاصر من جانب علماء الاجتماع الغربيين لهذا المبدأ يحتم علينا ان نرفضه وان نعتبره ضربا من ضروب الخرافة لا يمكن ان يتحقق . لقد اتخذ هؤلاء العلماء من هذا المبدأ ذريعة للتخلى عن مسئولياتهم العامة . فهم اما أن يهربوا من هذا العالم ، أو يهربوا اليه . فبعضهم يعيش فى بروج عاجية ويغتربون بذواتهم عن مشكلات

---

(٨) Ibid., p. 84

ومن الجدير بالذكر ان هذا الفصل بين العقل والعاطفة يتفق مع الاطار العام لنظرية فيبر عن تحليل الحضارة الغربية فى القرن التاسع عشر . فقد كان يرى — على ما راينا — أن هذه الحضارة تجد صراعا بين القديم والجديد بين الراديكالية والمحافظة بين الرومانسية والعقلانية . وقد انعكس ذلك فى تحليلاته حيث صاغ أنماطا مثالية تعكس وجود هذه التيارات المتصارعة . فقد كان فيبر يود أن يحافظ على انجازات الحضارة الغربية وفى نفس الوقت يحاول الحفاظ على التراث الرومانسى الذى يذكى الروح القومية الالمانية .

(٩) Ibid., pp. 71—72

العالم المحيط بهم . والبعض الآخر يحاول ابتكار أساليب فنية محايدة يمكن أن تباع لمن يريد الشراء . انهم يستخدمون مواهبهم فى دراسة العالم — ومن خلال البحوث الامبيريقية — دراسة محايدة من أجل بيع هذه البحوث لمن يريد استخدامها فى السيطرة على الأفراد أو قيادتهم . « وكلا الطرفين (الذين يهربون من العالم والذين يهربون اليه) يشتركان فى خاصية واحدة مؤداها أنهم يفتقدون الموقف النقدى الواضح تجاه المجتمع . فهم علماء غير ملتزمين يهملون مشكلات مجتمعهم الخاصة على حساب دعوى التحرر من القيم ، كما أنهم يسخرون عملهم لخدمة فئة معينة ، وهم بذلك يناقضون مبدأ التحرر من القيم ويحولونه الى مجرد خرافة » (١٠) .

ويكشف موقف جولدنر هنا عن رؤية نقدية لاسلوب علماء الاجتماع فى التفكير أو تنفيذ البحوث . فهم اما منظروا خياليون مغتربون عن المجتمع ، واما منفذو بحوث لحساب الآخرين نظير مقابل مادى . وهم بذلك لا يلتزمون بأى قيمة علمية ، حتى بالقيمة التى يتذرعون بها ، وأعنى التحرر من القيم . فالقيمة الوحيدة التى توجه بحوثهم هى تلك التى تتحكم فى المؤسسة الاكاديمية كلها والتى تذهب الى القول «أما النشر او الموت» Publish or Preshe ويكشف اتجاه جولدنر هنا عن تأثير واضح برايت ميلز — رغم أنه لا يعترف بذلك . واكثر من ذلك فان جولدنر يعتبر ميلز عالما مغتربا مثله مثل غيره من العلماء الامريكيين حيث ذهب الى القول بأنه « .. بالرغم من أن رايت ميلز قد يكون صادقا عندما قال أن هذا العصر هو عصر علم الاجتماع ، فان الكثير من العلماء — بما فيهم ميلز نفسه — يشعرون بالغربة والعزلة عن مجتمعهم » (١١) . ويضيف « أنا لا اقصد بذلك أن الاتجاه النقدى قد مات فى علم الاجتماع ، ولكنى اقصد انه وصل الى درجة سيئة . فأى شخص يتتبع

---

(١٠) Ibid., pp. 72–74.

(١١) Ibid., p. 75

اعمال سيمور مارتن ليبست ، وديفس رونج ، وليو لونثال ولويس كوزر ، وموريس شتين ، وتشارلز رايت ميلز .. سوف يعرف جيدا ما اقصده . فهؤلاء الافراد ما يزالون يعتبرون انفسهم علماء اجتماع وليسوا مثقفين . ان اعمالهم ترتبط ارتباطا وثيقا بالتراث الاكبر الذى تطور منه علم الاجتماع ذاته ، ورفضوا المهمة المنوطة بالمثقف ، واعنى حقه فى ان يصبح ناقدا للتراث (١٢) . واذا كان النصان السابقان يكشفان عن انكار لدور رايت ميلز النقدى للتراث السوسيولوجى وللمجتمع الامريكى ، فان الآراء التى طرحها جولدنر هنا — والتى سوف يطرحها فيما بعد — لا تعدو ان تكون تكرارا لما عبر عنه رايت ميلز عن نقده للنظريات الكبرى والنزعة الامبريقية وما جاء فى نظرية الخيال السوسيولوجى .

فى منتصف الستينات نشر جولدنر كتاب(١٣) Enter Plato . ورغم ان الكتاب دراسة للفكر الاغريقى الكلاسيكى ، الا انه يعد اول دراسة مطولة لجولدنر عن نقد النظرية الاجتماعية . كيف يكون ذلك والكتاب يعالج نظرية افلاطون ؟ هنا تكمن الجدة فى اسلوب جولدنر النقدى . انه يعتقد ان النظرية السوسيولوجية المعاصرة تتخذ شكلا معينا هو الشكل النسقى الكلى ، ومرجع ذلك الى ان البناء التحتى(١٤) . لهذه النظرية يتكون من مجموعة من الافتراضات والتفضيلات تتجه ناحية هذه الرؤية النسقية ، وتتحيز فى جانب الاتجاه المحافظ الذى يرغب فى الحفاظ على الوضع الراهن وبث روح الدعة والتفاؤل فى نفوس المواطنين . وهذا البناء التحتى ليس حديثا من نتائج الحضارة الغربية المعاصرة ، ولكنه بناء قديم يضرب بجذوره

---

(١٢) Ibid., p. 75

(١٣) A. Gouldner, **Enter Plato : Classical Greece and the Origins of Social Theory**, Routledge and Kegan Paul, London, 1967. First Published in 1965.

(١٤) البناء التحتى للنظرية هو مجموعة الاحساسات والمشاعر والاهتمامات والتفصيلات التى تتحكم فى فكر المنظر وتجعله يصبغ على نظريته طابعا معينا . ولقد افاض جولدنر فى شرح المفهوم فى كتابه « الازمة القادمة » على ما سنرى فيما بعد .

فى التفكير الاغريقى الكلاسيكى النابع من افلاطون(١٥) . ومن ثم فان كتاب Enter Plato ليس بحثا فى التفكير القديم بقدر ما هو بحث فى الجذور البنائية والفكرية ذات الطابع المحافظ التى قامت عليها النظرية الوظيفية المعاصرة . انه بتعبير أدق بحث فى البناء التحتى المحافظ للنظرية الوظيفية ، ليس موجها لفهم التفكير القديم ، وانما موجه لمحـــاولة فهم النظريات المعاصرة فهمـــا حقيقيا ، ونقدها نقدا بنائيا . ولقد أوضح جولدنر ذلك صراحة عندما كتب فى مقدمة كتـــابه Enter Plato يقول : « لم أنجز هذه الدراسة من دافع الاهتمام بالتراث القديم ، ولكن لتساعدنا على أن نشخص الحالة الحاضرة للنظرية الاجتماعية » . ويكشف ذلك النص عن حقيقـــة هامة مؤداهـــا أن جولدنر قد وصل فى منتصف الستينات ـــ وقبل خمس ســـنـــوات من نشر كتابه « الازمة القادمة » الى أن حالة النظرية الاجتماعية المعاصرة تستأهل مزيدا من الدراسة والفهم . لقد كاد ان يقول أنه أوشك فى الوقوع فى ازمة . ليس ادل على هذا من أن العمل الرئيسى لجولدنر بعد هذا الكتاب جاء ليشخص هذه الأزمة ويرسم الطريق الى التخلص منها . فلم يظهر لجولدنر أى عمل نظرى فى النصف الثانى من الستينات الا مقال عن علاقة علم الاجتماع بالدولة جاء ردا على مقال لهوارد بيكر يعالج قضية الالتزام فى علم الاجتماع . والحوار بين بيكر وجولدنر لا يخلو من طرافة ويكمل آراء جولدنر فيما يتعلق بالتحرر من القيم والالتزام ويدعونا ذلك الى استعراض هذا الحوار . أثار مقال جولدنر عن « خرافة التحرر من القيم » سؤالا على جانب كبير من الاهمية لم يجب عليه جولدنر صراحة : اذا كان علماء الاجتماع حولوا مبدأ التحرر من القيم الى خرافة ، واذا كان جولدنر يدعو الى الالتزام بدراسة مشكلات الانسان والمجتمع ، فما هى القيم التى يجب أن يلتزم بهـــا عالم

---

(١٥) الاساس النقدى الذى قدمه جـــولدنر هنا يشبه الى حد كبير الأساس النقدى الذى توخاه دارندورف فى مقاله الشهير « الطريق الى خارج اليوتوبيا Out of Uetopia حيث عقد مقارنات طريفة بين اليوتوبيات منذ افلاطون وبين النظرية السوسيولوجية المعاصرة على ما رأينا فى الفصل الخامس من هذه الدراسة .

الاجتمـــاع ؟ لم يجب جولدنر ـــ فى هذه المـــرحلة من تفكيره ـــ على هذا السؤال . وربما يكون هوارد بيـــكر قد احس ضرورة الاجابة على هـــذا السؤال عندما القى مقاله الشهير فى افتتاح الاجتمـــاع السنوى « لجمعية دراسة المشكلات الاجتماعية » عام ١٩٦٦ (١٦) . فى عبارة رائعة وضع بيكر Becker المشكلة التى يطرحها للبحث على النحو التالى : « دائما ما يلاحقنا السؤال الذى يتعلق بامكانية التحرر من القيم أو التأثر بها . فعندما يأخذ علماء الاجتماع على عاتقهم دراسة المشكلات التى تهم العالم الذى نعيش فيه ، فانهم يجدون أنفسهم بين كفى رحى . فالبعض يلحون عليهم الايتحيزوا ، وأن يكونوا محايدين ، وأن ينفذوا بحوثا مكتملة من الناحية الفنية ومتحررة من القيم . والبعض الآخر يؤكدون لهم أن بحوثهم سوف تكون ضحلة وغير مفيدة اذا لم تعبر عن التزام عميق بموقف قيمى . وهذا المعضلة التى تؤرق الكثيرين ، لا توجد بالفعل ، لأن أحد جوانبها غير قائم أساسا (يعنى التحرر الكامل من القيم) . ولو كان هذا الجانب موجودا ،فان المرء يستطيع أن يفترض امكانية القيام ببحوث غير محتوية على مظاهر التعاطف السياسى والشخصى . غير اننى اعتقد ان ذلك أمر مستحيل . ومن ثم فان الســـؤال الـــذى يجب أن نطرحه يجب الا يدور حول مسألة التحيز ، ما دمنا سنفعل ذلك حتما ، ولكن يجب أن نصوغه على النحو التالى : فى « صف من نتحيز ؟ » (١٧) .

وفى عرض مستفيض بيكر اجابته على هذا السؤال . فهو يطالب عالم الاجتماع أن ينظر الى كل موضوع يتناوله بالدراسة من وجهة نظر معينة . فالعالم الذى نفترض أنه يفهم المجتمع يجب ان يتـــدمج فى الموقف الذى

---

(١٦) H. Becker, «Whose side are we on» 1966. First Published in **Social Problems** 1967. Reprinted in : T. Douglas (ed). **The Relevance of Sociology**, op. cit., pp. 99—111

(١٧) Ibid., p. 99

يدرسه بدرجة تجعله يتخذ وجهة نظر معينة . واذا كان المجتمع ينقسم الى طبقة عليا من السادة Superiors وطبقة دنيا من المطحونين Subordinate or Underdogs فان عالم الاجتماع يجب أن يتشيع لأى منهما فى دراسته . ويدعو بيكر لان يقف عالم الاجتماع فى صف الطبقة المطحونة وان يوجه دراسته لفهم مشكلاتها وعلاقتها بالطبقة الاخرى . « يجب ان نتحيز كما تملى علينا التزاماتنا السياسية والشخصية ، وان نستخدم معلوماتنا النظرية والفنية لتجنب التحريفات التى قد تشوب اعمالنا ، وان نحدد نتائجنا بدقة وان نأخذ فى اعتبارنا تدرج الهيبة ، وان نواجه قدر استطاعتنا الشكوك والاتهامات التى سوف تواجهنا » (١٨) .

ولقد سبب هذا المقال ازعاجا كبيرا لالفن جولدنر جعله يرد عليه بمقال مطول عن علم الاجتماع والدولة نشره عام ١٩٦٨ (١٩) . اتهم جولدنر بيكر بأنه أساء فهم مقاله عن « خرافة التحرر من القيم » وتخوف من أن تستبدل خرافة التحرر من القيم بخرافة اخرى هى خرافة التشيع والانحياز فى صف فئة من الفئات التى تشملها الدراسة بالطريقة التى عرضها بيكر تجعله يسير فى نفس الاتجاه الذى تسير عليه دولة الرفاهية بأسلوبها

---

(١٨) Ibid., p. 111

ومن الجدير بالذكر ان هوارد بيكر يتزعم جماعة من علماء الاجتماع تشبه الى حد كبير مدرسة شيكاغو ، تهتم بدراسة المشكلات الاجتماعية خاصة مشكلات المنحرفين ، ومنبوذى المجتمع ، وتنظر الى تلك الفئات على انها نتاج المجتمع وما به من علاقات . ويعد كتاب بيكر عن « المشكلات الاجتماعية » وكتابه عن « منبوذى المجتمع » Outsiders علامتان بارزتان فى علم الاجتماع الأمريكى فيما يتعلق بتحليل المشكلات الاجتماعية .

(١٩) A. Gouldner, «The Sociologist as a Partism, Sociology and the Wefare State», A.S. 1968. Reprinted in : J. Douglas (ed) Relevance of Sociology, op. cit., pp. 119—149.

الجديد . لا يعنى ذلك أن جولدنر يرفض مسألة « التشيع » رفضا ، ولكنه يعنى أنه يرفضها بأسلوب بيكر وزملائه . فالتعاطف الملتزم مع المطحونين يمكننا من أن نمارس عملا أفضل كعلماء اجتماع ، لانه يمكننا من أن نوضح للرأى العام جوانب من الواقع يلتبس عليه فهمها . وأهم جانب يجب توضيحه بهذه الطريقة هو جانب « المعاناة » الذى تخبره هذه الفئات المطحونة.ومن ثم فمشكلة هؤلاء ليست مشكلة تدرج فى الامتياز Hierarchy of Cridibility يخول للبعض الحق فى أن يحددوا ما هو حقيقى وما هو غير حقيقى فى العالم المحيط بهم على ما ذهب بيكر ، ولكن المشكلة تكمن فى أن الذين يتربعون على قمة هذا التدرج لا يدركون مدى ما يعانيه الراقدون اسفله — وهذه مسألة لم يهتم بها بيكر ؛ وتركز كل اهتمامه على أن يكشف عن العالم والعلاقات السائدة فيه من خلال وجهة نظر المطحونين دون أى اهتمام بمعاناتهم أو أساليب التغلب على هذه المعاناة (٢٠) .

فتشيع بيكر وزملائه هو تشيع غير ملتزم ، كما انه لا يهدف الى تغيير الوضع القائم ، قدر هدفه الى فهم هذا الوضع من قاعدته الاساسية . لقد كان على بيكر أن يوضح الاسس التى يقوم عليها التزامه ، والمبادىء التى يسير عليها ، والقيم التى تكمن وراء هذا الالتزام . انه التزام غير قائم على أيديولوجية واضحة حقيقة « .. انه يكشف عن قدر من الدوافع الاخلاقية ، الا انه يتركنا عميانا » (٢١) . ويريد جولدنر هنا أن يؤكد أن مسألة الالتزام بالمفهوم الذى قدمه بيكر لا تكشف عن جوانب تقدمية فى تفكيره ؛ وانما على العكس من ذلك تماما تمثل وجهة نظر ليبرالية محافظة تخدم القائمين على شئون دولة الرفاهية . فقد كانت برامج دولة الرفاهية تقوم على اساس توفر الموارد الاقتصادية ، أو مبادرات جماعات الصفوة فى المجتمع المحلى . أما الآن — وبعد أن أعلنت سياسة الحرب ضد الفقر — فان برامج دولة الرفاهية يتم تنفيذها على مستوى السياسات والمؤسسات القومية . ومن

---

(٢٠) Ibid., p. 121

(٢١) Ibid., p. 129

صالح هذه المؤسسات ــ التى يشرف عليها افراد من الطبقة العليا ــ ان تحشد كما هائلا من البيانات عن الطبقة الدنيا ، وان تتعرف على وجهة نظر هذه الطبقة ورؤيتها لبناء المجتمع . فاذا كانت رؤية بيكر تقرب الباحث وتجعله صديقا للمطحونين الا انها تجعله « .. يكون صداقات مع المتربعين على القمة والمتحكمين فى الهيئات والمؤسسات فى واشنطن او نيويورك .. وتخلق علما اجتماعيا يتفق وطابع الاصلاح الاجتماعى فى الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر » (٢٢) .

ويود جولدنر أن يرتفع بالالتزام من مجرد التعاطف مع الطبقة المطحونة كما ذهب بيكر ، الى محاولة فهم معاناة هذه الطبقة من اجل تغيير وضعها فى البناء القائم . ويتضح لنا موقف جولدنر بجلاء من خلال معالجته لقضية الموضوعية فى علم الاجتماع . فالمحقق أن مسالة الالتزام والتشيع تثير مشكلة الموضوعية . ولم يستطع بيكر ــ حسبما يذهب جولدنر ــ أن يواجه هذه المشكلة ــ فقد اعتبر بيكر أن اجراء الدراسة من وجهة نظر جماعة معينة لا يقلل من موضوعيتها ، لان الباحث سوف يحكم عقله دون عاطفته فى اثناء اجراء هذه الدراسة . فالتأثر بالعواطف Sentimentality هو الذى يفقد البحث موضوعيته . وبذلك يكون بيكر ــ فى فهمه لاسطورة التحرر من القيم ــ قد خلق أسطورة جديدة هى التحرر من العاطفة Sentiment-frasy وهو أمر لا يمكن تحقيقه بأى حال من الاحوال . اذ كيف لا يتأثر الباحث بالعواطف وهو يتوحد مع وجهة نظر جماعة معينة . ان هذا التوحد يجعل من الباحث ووحدة دراسته كيانا واحدا يعبر عن وجهة نظر واحدة . وذلك اخطر شىء يهدد الموضوعية .

فما هو الحل الذى قدمه جولدنر لمشكلة الموضوعية بالنسبة للباحث الملتزم ؟ بعد أن فرغ جولدنر من نقد بيكر مباشرة كتب يقول « .. أن تبنى وجهة نظر الشخص المحايد Outsider بحيث لا يقودنا ذلك الى اهمال وجهة نظر المشاركين ــ هو الطريق الوحيد الذى من خلاله نستطيع ان

---

(٢٢) Ibid., p. 132

نتعرف على وجهة نظر هؤلاء المشاركين والتوحد معها . فلا يصبح من الممكن تقديم صورة منصفة عن وجهة نظر هؤلاء المشاركين ، الا عندما نتبنى رؤية تخالف رؤيتهم » (٢٣) . ويكشف هذا النص عن محاولة من جانب جولدنر للتوفيق بين الرؤية الراديكالية للعلم وبين الموضوعية . وهو يلزم الباحث أن يكون محايدا ، على الا يؤثر هذا الحياد فى التزامه بالكشف عن المعاناة التى تعيشها الطبقات المطحونة . ويستطيع الباحث أن يحقق هذا الحياد من خلال وسائل ثلاثة تعد بمثابة انواع مختلفة من الموضوعية(٢٤) :

(أ) الموضوعية المعيارية normative objectification . وتفرض على الباحث أن يقوم بدور القاضى بين أطراف الدراسة ، فحكمه لابد أن يكون عادلا . والعدل هنا لا يعنى توزيع الفوائد بين الأطراف بالعدل ولكنه يعنى الالتزام بمستوى محدد . بمعنى أن يبرر الباحث حكمه من خلال قيمة اخلاقية معينة . انه هنا لا يهتم بالانحياز ، طالما يواجه الآخرين صراحة بالقيم التى يقيم عليها حكمه .

(ب) الأصالة او الصدق مع الذات Personal Authenticity وتعنى أن يكون الباحث على درجة من الوعى بحيث يدرك العلاقة بين معتقداته عن العالم الاجتماعى الحقيقى من ناحية ، ورغباته وآماله وقيمه الشخصية المتصلة بهذا العالم من ناحية اخرى . فالباحث هنا رجل أصيل فى أفكاره ، صادق مع نفسه ، أو رجل سند يعرف ما له وما عليه : يلتزم بقيم معينة ، ولكنه لا ينكر وجود القيم المضادة أو المعادية ، وغالبا ما تكون أفكاره تعبيرا صادقا عما يدور فى العالم ، وتصويرا حقيقيا وأصيلا له .

---

(٢٣) Ibid., p. 138

(٢٤) Ibid., pp. 138—142

(ج) امكانية اعادة اجراء البحوث على افراد آخرين . بمعنى أن الباحث يجب أن يصف اجراءاته بدرجة من الوضوح تمكن الآخرين من استخدامها على نفس المشكلة بحيث يأتى البحث بنفس النتائج . وهذا النوع من الموضوعية يعتمد على الكفاءة الفنية للباحث وقدرته على تقنين اجراءاته المنهجية وشرحها بالتفصيل .

كان هذا عرضا لفكر جولدنر قبل ان يؤلف كتابه « الازمة القادمة » عام ١٩٧٠ . ونلاحظ فى هذا الفكر ارهاصات نقدية هى التى قام عليها تشخيصه لازمة علم الاجتماع فى بداية السبعينات فقد بدأ فكر جولدنر بتأييد لوجهة النظر الوظيفية ، ثم ثورة عليها ونقدها ، ثم ثورة على طريقة العلماء فى اجراء البحوث ، وفهمهم الخاطىء لدعوى التحرر من القيم ، ثم مناقشة لموضوع الالتزام ومحاولة التوفيق بين الالتزام والموضوعية . ويستلفت نظرنا هنا بعض الاعتبارات :

١ — أن فكر جولدنر قبل بداية السبعينات قد تركز على اثارة المشكلات والقضايا دون رؤية نقدية راديكالية متكاملة .

٢ — انه لم يحدد موقفه صراحة من الكثير من المشكلات التى طرحها . حقيقة اننا نلاحظ أن آراءه تقدمية متأثرة برايت ميلز — رغم عدم تصريحه بذلك — الا انه كان ما يزال يضع اللبنات الاولى فى اطاره النقدى .

٣ — تجاهله لرايت ميلز — رغم التأثر الواضح به — ربما يكون ذلك من المؤشرات التى تجعلنا نضع تحفظا كبيرا قبل ان نسم جولدنر فى نهاية الخمسينات والستينات بأنه راديكالى . ويمكن ان نرجع هذا التجاهل لآراء ميلز الى ان آراء ميلز نفسها لم يكتب لها الذيوع والانتشار ،

أو لم تتضح أهميتها الا فى أواخر الستينات فى نفس الوقت الذى كان جولدنر يكمل فيه أعماله .

ورغم ذلك فقد تحولت هذه الارصاءات النقدية الى نظرية نقدية مكتملة قدمها جولدنر فى كتابه « الازمة القادمة » سوف نعرضها فى الفقرة القادمة .

ثانيا ــ أزمة علم الاجتماع « الموقف والحل » :

فى تصديره لكتاب « الازمة القادمة » اعترف جولدنر أن هذا الكتاب هو استمرار لاعماله السابقة ، خاصة كتابه Enter Plato وانه سوف يستفيد من كل هذه الاعمال فى خدمة غرضه فى هذا الكتاب ، وأعنى تشخيص أزمة علم الاجتماع والطريق الى تصحيح مساره . ويمثل كتاب جولدنر «الازمة القادمة» تحولا ثانيا فى فكر جولدنر(٢٥) . وأماط هذا التحول اللثام عن رؤية راديكالية محددة تستهدف تصحيح مسار علم الاجتماع وتخليصه من أزمته الراهنة . غير أننا لابد أن نتساءل عن سبب هــذا التحول . يمكن القول أن رؤية جولدنر الراديكالية فى بداية السبعينات قد تبلورت فى أكمل صورها من خلال حركة جدلية بين فكر جولدنر بما كان يحويه من ارهاصات نقدية ، وبين الثورة الراديكالية التى اجتاحت العالم الرأسمالى فى أواخر الستينات . فقد أدرك جولدنر طبيعة هذه الثورة ، وطبيعة التحديات البنائية والفكرية التى وضعتها هذه الثورة أمام الفكر الكلاسيكى المرتبط بمشكلة النظام ، وما خلقته داخله من تناقضاته . وبناء على ذلك أدرك جولدنر ضرورة تغيير هذا الفكر أو تصحيح مساره فى ضوء هذه الظروف الجديدة . واتخذ جولدنر من النقد اسلوبا لقيادة حركة تصحيح ونقــد واســعة النطاق فى علم الاجتماع . ونود فى هذه الفقرة أن نكشف عن طابع التفــكير النقدى الراديكالى عند جولدنر وأسلوبه فى تصحيح مسار العلم . ويستلزم ذلك

---

(٢٥) كان التحول الاول عندما تحول جولدنر من الوظيفية الى الاتجاه النقدى فى نهاية الخمسينات وبداية الستينات .

ان نعرض لموقفه من أزمة علم الاجتماع ، وتصوره للطريق الى خارج الازمة، والخطوات التى اتخذها على هذا الطريق .

١ ــ أزمة علم الاجتمـــاع :

صدر جولدنر كتابه « الازمة القادمة » بالعبارة التالية « يعمل المنظرون الاجتماعيون هذه الايام داخل نسيج اجتماعى مفتت يتكون من مراكز مشلولة وجامعات فقدت هيبتها الاخلاقية . ورغم ذلك فان البعض يصمون آذانهم، بالرغم من أنهم يحسون بنخر الامواج فى اجسامهم . وليس من المبـــالغة أن نقول أننا ننظر الآن على اصوات المدافع . فالاساس الذى يقوم عليـــه النظام القديم يتعرض لمخالب مئات من المتمردين عليه .. وهذا الاطـــار من التناقضات والصراعات الاجتماعية هو الذى يكون النسيج التاريخى لما اسميته بالازمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى » (٢٦) . ورغم غمـــوض هذه العبارة وتركيزها الا أنها تكشف بجلاء عما يقصده جولدنر بأزمة علـــم الاجتماع . فبناء العلم ، ووضعه داخل المجتمع ، وصلته بالحركة التاريخية. كل تلك الامور تنطوى على ضروب من التناقضات والصراعات يمكن أن تؤدى ــ أن لم تكن قد أدت بالفعل ــ بالعلم الاجتماعى الى أزمة اذا لم يصحح من مساره ويتغلب على تناقضاته . يؤكد ذلك ما ذكره جولدنر عن معنى الازمة : فالازمة لا تعنى احتضار الكائن الذى يمر بها ، ولكنها تعنى أن هناك تغيرات جذرية فى نسق معين يؤدى به الى نسق مختلف تماما ، أو تنتابه لفترة يعود بعدها الى حالته الطبيعية ، فالتغير فى حد ذاته لا يعنى وجود أزمة ، لابد ــ لكى توجـــد الأزمة ــ أن يرتبط التغير ببعض التوترات والصراعات « فالانساق تخبر حالة مستمرة من التغير ، ولكن ذلك لا يعنى بالضرورة أنها تعيش أزمة . ففى وجود الأزمة تتم التغيرات الحاسمة بمعدل سريع نسبيا ، وتشتمل على صراع حاد ، وتوترات كثيرة » (٢٧) .

---

(٢٦) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., p. VLL

(٢٧) Ibid., 341—342

ولكن ما هى التناقضات والصراعات التى يخبرها علم الاجتماع والتى تدل على ازمته القادمة ؟ ليس هناك اجابة محددة على هـذا السؤال فى كتـاب جولدنر ، ولكننا نستطيع أن نستخلصها من القراءة المكثفة للكتاب ،ونلخصها على النحو التالى :

(أ) التناقض فى الموقف الراديكالى من النظرية . فالجيل الجـديد من من الثوار — سـواء من اليسار الجديد أو حركة تحرير السود — يتجنبون اى اهتمام بالنظرية الاجتماعية . ذلك لأنهم يعتمدون على السياسات البراجماتية المحسوسة ، كما أنهم يسايرون الهيبز فى رفضهم للثقافة الأمريكية . ولما كان علم الاجتماع قـد أصبح جزءا لا يتجزأ من هذه الثقافة ، فمن الطبيعى أن يرفض الجيل الجديد النظرية السوسيولوجية مثلما يرفض الثقافة الأوسـع . وهذا الموقف من جانب الراديكاليين ينطوى على ضرب من الخطر والتناقض . اذ أنه يعنى أنهم يستسلمون لبعض التيارات الفجة فى الثقافة الأمريكية مثل معـاداة الفكر Anti-Intellectualism والدعوة الى عـدم التعلق بالمعرفة Know-nothingism . وبذلك لم يدرك الراديكاليون — الذين يريدون تغيير العالم — أن هذه المهمة لا يمكن انجازها دون موجهات نظرية ، كما انهم لم يدركوا أن الذين يقاومون هذه المهمة تساندهم نظريات لها قوة التأثير . وأن فهم العالم من أجل تغييره لا يجب أن ينفصل عن مهمة صياغة النظرية عن هذا العالم . فمهمة تطوير النظرية لا يمكن أن تنفصل عن مهمة تغيير المجتمع ولقد حاول بعض الراديكاليين التغلب على هذا التناقض من خلال تجرع الماركسية بعناء . وهى بديل أفضل من اى بديل آخر اذا ما اعتبر الفرد نفسه ماركسيا بحـق ، غير انه لا يوجـد تمثـل حقيقى للماركسية من جانب الراديكاليين (٢٨) .

(٢٨ أوضحنا فى الفصل السادس موقفنا من هذا الموضوع ، وبررنا موقف الراديكاليين ، ودفعنا عن اتهامهم بأنهم يعادون الفكر .

(ب) الى جانب هذا الموقف المتناقض بين الفكر والعمل عند جماعات الثوار ، فان حركة الفكر والعمل فى علم الاجتماع قد أفرزت تناقضا آخر يرتبط بموقف الراديكاليين . حدد الراديكاليون موقفهم من علم الاجتماع الغربى بانه علم ذو اتجاه محافظ يرتبط أساسا بسياسة الدولة الراسمالية ، وقد ازداد هذا الموقف صلابة بعد ان ظهر فى الاتحاد السوفييتى علم اجتماع يسير على هدى الماركسية اللينينية ، وينحو نفس منحى علم الاجتماع الأمريكى فى خدمة الدولة . ورغم هذا الموقف من جانب الراديكاليين الا ان ظهورهم فى حد ذاته يعبر عن ان علم الاجتماع قائم على تناقض بين الاتجاه المحافظ والاتجاه الراديكالى . ذلك أن أغلب الطلبة الراديكاليين — على ما لاحظ ليزلى فايدلر Fiedler هم من طلبة الاجتماع . فوراء كل مظاهرة طلابية — على ما يذهب فايدلر — شخصية طالب فى علم الاجتماع ، أو يهودى ، او شخص يعيش خارج جماعته الاجتماعية Outsiider . كما اتضح هذا التناقض فى الاجتماعات التى عقدتها الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع فى بوستون فى أغسطس ١٩٦٨ . فقد ظهرت بجانب الاجتماعات الرسمية للجمعية اجتماعات غير رسمية نظمها أعضاء حركة تحرير علم الاجتماع . ولقد عاصر هذان الاجتماعان بعضهما دون اى اتصال الى أن جاءت الاجتماعات الختامية حيث تجمع أكثر من الف لسماع كلمة سكرتير الصحة والتعليم والرفاهية الاجتماعية . وتحول الاجتماع الى حادثة تاريخية حينما سمح فيليب هاوسر Huuser رئيس الجمعية للراديكاليين أن يعبروا عن آرائهم من فوق المنصة الرئيسية خوفا من التظاهر فى أثناء القاء السكرتير لكلمته . وقدم الكلمة الافتتاحية عالم الاجتماع الشاب مارتن نيقولا M. Nicolaus الذى هاجم سكرتير الصحة

ووصفه بأنه يتزعم جبهة تحـــارب الشعب ، واتهم أعضـــاء الجمعية بأنهم حشد من القســاوسة والكتبة والخدم لأن تفكيرهم ما هو الا امتداد للاتجاه التقليدى والنزعة المحافظة فى القـــرن التاسع عشر ، وان كان يتخلق فى صـــورة جـــديدة فى ارتباطه بالليبرالية الأمريكية فى القرن العشرين . انهم ينصبون من أنفسهم خدما للطبقة الحاكمة .

يعنى ذلك أن الذين يتهمون علم الاجتماع بأنه علم محافظ هم أنفسهم علماء اجتماع ، وبناء على ذلك يستخلص جولدنر أن علم الاجتماع يستطيع أن ينتج ذوى النزعة المحافظة وذوى النزعة الراديكالية . ويعد ذلك ضربا من ضروب التناقض الكامنة فى بناء العلم ذاته . فهو يتصل اتصالا وثيقـــا بالطابع المحافظ ويرتبط بالوضع الراهن فى المجتمعات الرأسمالية ، ولكنه يعمل فى نفس الوقت على تنمية الميول الراديكالية المضادةللنظام القائم ، خاصة بين الشباب . انه علم ذو طابع ديالكتيكى ويحوى فى داخله ابعادا ليبرالية واخرى قهرية محافظة . ويفرض ذلك على الباحثين مهمة تخليصه من جوانبه القهرية وتطوير جوانبه الليبرالية الراديكالية كى يستطيع أن يتخطى هذا التناقض الكامن فى بنائه الداخلى .

(جـ) والتناقض بمظهريه السابقين هو نتاج تناقض آخر داخل النظرية الوظيفية المتربعة على عرش علم الاجتماع فى البلاد الغربية . أول مظهر لهذا التناقض هو اندفاع الوظيفية نحو دولة الرفاهية . لقد نشأت الوظيفية على يد دوركايم وبراون وغيرهما بعيـــدة عن تأثير الدولة ، ولكن صورتها المعاصرة كما قدمها بارسونز تقدم تدعيما نظريا لدولة الرفاهية . كيف يتم ذلك ؟ تجعل الوظيفيـــة من العلاقات الاجتماعية اهتمام رئيسى لها ، وتنظر الى النظلم الاجتماعى على انه يمكن ان يقوم فى المجتمع بصرف النظر عن الاشباعات الاقتصادية التى تقدمها دولة الرفاهية (ربما لأن هذا

النظام قائم على أساس روحى) . ومن هنا فان هذه الاشباعات تعتبر مسلمات فى نظر الوظيفيين ، فضلا عن أن هذه الاشباعات الاقتصادية تعد وسيلة لاشباع الحاجة التى تعتبر عنصرا اساسيا ليتم الفعل الاجتماعى على أساس من النظام . ومع ذلك فان الوظيفية ترتبط بدولة الرفاهية من ناحية أخـرى ، اذ أن تلك الأخيرة تعتبر مصدرا لا ينضب لتمويل العلوم الاجتماعية ، ومن هنا يتدعم بينهما التعاون القائم على المصلحة . وقـد دفع ذلك التعاون — الى جانب الضغوط التى تمارسها دولة الرفاهية نفسها — الى أن تعدل الوظيفية من بعض مفاهيمها بحيث يمكن أن تقابل المشكلات العملية التى تواجه دولة الرفاهية ، وبحيث يبرز دور الدولة فى تحقيق التقدم والتضامن . وكان مفهـوم الخلل الوظيفى ، ونظرية القرار ، ونظرية السبرنطيقا ، والاتجاه السببى الجديد الذى يتزعمه بلالوك Blalock وبيتربلاو Blau من نتاج هذا التعاون بين الوظيفية والدولة . ورغم هذا التعاون فان التناقض ما يزال قائما بينهما ، ذلك لأن الوظيفية لم تستطع أن تقدم نظرية مكتملة عن التغير الاجتماعى ، وعندما حاولت ذلك تخبطت فى مفاهيم تطورية قربتها من الماركسية التى تعاديها دولة الرفاهية .

(د) أما ثانى هذه المظاهر — والذى يضيف عنصرا رابعا لازمة علم الاجتماع فهو ما اسماه جولدنر تفتت Entropy الوظيفيـة أو انقسامها على نفسها . فقد تميزت الوظيفية فى السنوات الاخيرة بتنوع هائل فى الاتجـاهات الرئيسية فيها . ونتج ذلك عن النجاح الذى حققته ، بحيث اندفع اليها أنصار عديدون كل يريد أن يميـز وجهـة نظره . كما ان الجماعة الاولى Seed group

التى نشرت البارسونزية كشفت منذ بدايتها عن ميول مختلفة . وقد تدعمت هـذه الميول المختلفة من خلال النجاح والامتياز الاكاديمى الذى حققته هذه الجماعة . ويبرهن جولدنر عن وجهة نظره هذه من خلال نتائج بحثه عن علماء الاجتماع السـابق الاشارة اليه . فقد لاحظ جولدنر أن نسبة المعارضين للوظيفيـة تزداد كلما انخفض سن الافراد من عينـة البحث على النحو التالى :

السـن	نسبة المعـارضة
اكثر من ٥٠	٥ ٪
٤٠ — ٤٩	٩ ٪
٣٠ — ٣٩	١١ ٪
٢٠ — ٢٩	١٤ ٪

ورغم أن النسب قليلة ، الا أن أهميتها تأتى من تزايد العدد باستمرار . ويدل ذلك على أن الوظيفية تجد صعوبة فى أن تضم اليها جيل الشباب ، وانه كلما مر الوقت ، كلما انفض العلماء من حولهـا وبحثوا عن نظريات جديدة . ويبرهن جولدنر على ذلك من خلال عنصرين :

١ ـ تعرض الوظيفية لتيارات نقد عنيفة من جانب الكثير من العلماء من أمثـال : دارندورف ، وبيتـر بلاو ، ودينس رونج ، رايت ميـلز ، والفن جولدنر .

٢ ـ بداية ظهور بدائل نظرية جديدة او اتجاهات جديدة تصارع الوظيفية وتخلق داخلهـا توترات كثيرة . من هـذه النظريات الجـديدة ـ الاثنوميتودولوجى التى طورهـا جارفينـكل ، ونموذج علم النفس الاجتماعى الذى طوره جوفمان ، واتجاه جورج هومانز فى دراسـة الجماعة .

وتتفاعل كل هذه التناقضات داخل علم الاجتماع الغربى لتضعه على حافة ازمة . ولكن لابد أن نتساءل : هل يشخص جولدنر هذه الازمة لكى يساعد النسق النظرى على أن يتخلص من تناقضاته الداخلية أو يعاود صياغتها صياغة نظامية ، ويستمر فى مسيرته من جديد ؟ اولاجابة على هذا السؤال مؤكدة بطبيعة الحال ، فجولدنر لا يبغى من وراء تشخيصه للأزمة أن يساعد النسق النظرى على تخطيها ، ولكنه يريد أن يقول أن هذا النسق النظرى غير قادر على استيعاب التغيرات والصراعات ، وغير قادر على أن يفسر كل جوانب الواقع الاجتماعى لانه يتخذ طابعا معينا هو المرتبط بالنظام ويعمل — بل ويحاصر — الجوانب الاخرى المرتبطة بالصراع والتغير . حقيقة انه يعترف أن علم الاجتماع يحوى جوانب ليبرالية راديكالية واخرى قهرية محافظة ، ولكنه يرى — فى ذات الوقت — ان هذا العلم ينمى الجوانب الليبرالية الراديكالية . وهذا هو الاساس فى كل التناقضات الداخلية التى يخبرها علم الاجتماع . وبناء على ذلك يشخص جولدنر الازمة كنقطة مرحلية فى نقده لهذا العلم من أجل تغيير مساره واتجاهه ليحوى هذه الجوانب الليبرالية الراديكالية وليصبح علما يسعى الى تحقيق غايات انسانية بدلا من غاياته القهرية والاستغلالية التى يسعى اليها حاليا . وافتراض ذلك هو بداية الخروج من الازمة أو تفادى وقوعها .

٢ — الطريق لتفادى الازمة — اساس جديد لنقد علم الاجتماع :

ذكرت فيما سبق أن جولدنر يعتقد أن علم الاجتماع يحوى جوانب محافظة واخرى راديكالية . بناء على ذلك يذهب جولدنر الى ان مهمة الباحثين يجب أن تنصب على استخلاص الجوانب الراديكالية من العلم ، وتخليصه من جوانبه القهرية . وليس هناك من سبيل لتحقيق هذه المهمة الا النقد . ولقد عبر جولدنر عن وجهة نظره هذه حين قال : « لا يمكن استخلاص الجانب الليبرالى من علم الاجتماع الاكاديمى ، وكذلك الماركسية التاريخية ، من خلال البحث فقط . ان ذلك يتطلب عملا ونقدا مستمرين ،

وجهودا لتغيير العالم الاجتماعى وتغيير العلوم الاجتماعية . فهما متصلان اتصالا وثيقا ، لسبب واحد هو أن العلوم الاجتماعية جزء من العالم الاجتماعى كما انها قيم له . ولا يمكن تعميق نقد المجتمع المعاصر دون نقد لادوات النقد ذاتها ومنها علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية . كما أن نقد علم الاجتماع يكون نقدا سطحيا اذا لم ننظر الى العلم على انه نتاج مجتمع .. ومن ثم فان ما نود تحقيقه هو تقديم تحليل على مستويات عديدة ، نستطيع أن نرى فيها علم الاجتماع فى ارتباطه باتجاهات تاريخية واسعة النطاق ، وفى علاقته بمستويات تنظيمية كبيرة خاصة الدولة ، كما أن هذا التحليل يعنى رؤية علم الاجتماع داخل الاطار المكانى الذى يوجد فيه ، واعنى الجامعة ، وكأسلوب حياة يعمل من خلاله الافراد كمدرسين وباحثين ، ويمارس داخل جماعة فكرية لها ثقافتها المهنية . واخيرا يتطلب نقد علم الاجتماع تحليلا مفصلا ومحددا للمجتمعات الفكرية والنظرية التى انتجها هذا العلم » (٢٩) . ولا نستطيع أن نضيف بعد هذا الاقتباس الا اقتباسا آخر « اننى مقتنع بأن استخلاص الجانب الراديكالى الليبرالى من علم الاجتماع لا يمكن ان يكون مؤثرا من خلال تدفق التعميمات التى تهمل التفاصيل ، ان ذلك يجب أن يتم من خلال مواجهة النظريات نقطة بنقطة ، والمنظرين فرد بفرد . وهذه العملية التى تتعمق فى تفاصيل النظريات ورد فعلنا تجاهها تعتبر ضرورية اذا ما أردنا ان نغير هذه النظريات ، وأن نحرر انفسنا من تأثيرها المحافظ ، وأن نقدم العناصر التى تتضمنها فى صورة جديدة . وبدون هذه العملية فان النقد الراديكالى للمجتمع ولعلم الاجتماع يقع فى مخاطرة الجدل العقيم » (٣٠) .

ويتضح من هذين النصين مجموعة من العناصر تعد خلاصة الاتجاه النقدى لالفن جولدنر :

---

(٢٩) Ibid., pp. 13--14

(٣٠) Ibid., pp. 14--15

التحتى الى ايديولوجية : تحفزنا اما الى قبول العالم أو تغييره (٣٣) . و
علماء الاجتماع لايعرفون بهذه الحقيقة ، ذلك انهم يذهبون ضحية افكا
المنهجية ، وتعلقهم بتقاليد العلوم الاجتماعية . فالمناهج المعقدة
يستخدمها العلماء فى دراسة العالم — الذى يعتقد انه شىء خارجى
تسلب الباحث ذاته : فهو لا يستطيع أن يرى ذاته من خلال البحث ،
ان البحث الذى يجرى بهذه الطريقة يخلق هوة بين الموضوع الذى يتع
معه الباحث وبين حياته كفرد عادى مثل الآخرين .

بناء على ذلك يجب أن يوجه نقد علم الاجتماع الى الكشف عن ال
التحتى للنظرية ، وكذلك البناء الواقعى لحياة عالم الاجتماع ذاته . فالا
يتيح لنا أن نتعرف على الأطر البنائية والأيديولوجية التى تغلف النظ
السوسيولوجية ، والتى فرضت عليها أن تتخذ اتجاها معينا فى فهمها للو
الاجتماعى وتفسيره . ومن ثم نستطيع ان نستخلص منها الجوانب الليبرا
الثورية القادرة على تقديم رؤية واقعية هدفها تحرير الانسان من القهر
والثانى يتيح لنا أن يتغلب الباحث على التوتر والصراع القائم بين حي
الخاصة التى نفترض أن بها قدرا من الليبرالية وبين سعيه المس
للمحافظة على النظم القائمة وعدم تغييرها . معنى ذلك انه يتيح له
يواجه نفسه بكل مظاهر اللبس والغموض التى تكتنف مهنته ، وبذلك يكتس
وعيا ذاتيا يجعله قادرا على ان يميز بين الغث والثمين ، وان ينفض يده
مظاهر السيطرة المحيطة بعمله .

---

(٣٣) يسوق جولدنر على هذه الفكرة مثالا من الكتاب الذى اشرف ع
تحريره بارسونز بعنوان « علم الاجتماع الامريكى » حيث جاء بالكتاب مد
ذاتى يدافع عن الافتراضات والمسلمات التى يطرحها الفكر الرأسمالى
ويدافع — بطريقة ضمنية — عن النظام نفسه الذى بدأ يفقد جوانبه م
جراء الحرب الفيتنامية وصراع السود والبيض ، انظر :

arsons (ed), American Sociology, Basic Books, New York, 1969.

مثلا التحيز ضدهم — وصفهم بأنهم كسالى وانانيون . وهكذا يترسب
ان العالم — وهو فرد عادى مثله مثل اى شخص آخر — مجموعة من
ام والافتراضات العامة والنوعية . وعند صياغته للنظرية تخرج النظرية
مغلفة بهذه الافتراضات ، فليس هناك ما يقيه من التأثر بها . فهو
ن يعيش فى ثقافة معينة مثل اى انسان آخر ولابد أن تدفعه الثقافة
عها وتلقى بظلالها على تفكيره وآرائه . وبناء على ذلك ليس هناك فرق
الباحث ومادة دراسته ، فالأفراد ليسوا « أشياء » كما ذهب دوركايم ،
ا هم جماعة من الأفراد يعد الباحث واحدا منهم . ولقد استطاع جولدنر
ن خلال بحثه عن علماء الاجتماع — أن يشجب بعنف مسلمة الفصل بين
ت والموضوع التى وضع بذورها دور كايم . فقد استعمل جولدنر وزميله
ت ذلك التحليل العاملى حيث فصلا سبع عوامل على أنها الأبعاد الهامة
لعدد الكبير من الاسئلة التى تضمنها الاستبيان . ولقد اثبت التحليل
العامل الخاص بالافتراضات العامة هو اهم العوامل السبعة على
لاق(٢٢) .

بناء على ذلك تكون النظرية انعكاسا للواقع الشخصى للمنظر . ويفرق
دنر بين مستويين لهذا الواقع : الواقع الخاص بدور عالم الاجتماع
م ، والواقع الخاص بدوره كشخص يعيش فى المجتمع . ولا يستطيع
حث أن يفصل بين هذين الدورين ، بل أن حياته قائمة على التفاعل
ما . ويطلق جولدنر على الواقع الشخصى الذى يؤثر فى النظرية البناء
حتى للنظرية حيث تمثل النظرية ذاتها بناء فوقيا أو بناء فرعيا . وكل
يفعله عالم الاجتماع — عندما يقدم نظريته — هو أنه يحول هذا البناء

---

(١) Ibid., pp. 31—43

علم الاجتماع باتجاهات تاريخية واسعة النطاق ، وبمستويات تنظيمية معينة ، وكنتاج لاطار مكانى معين ، وكأسلوب حياة لمجموعة من الافراد فى المجتمع . ان النقد يتم هنا فى ضوء سوسيولوجيا علم الاجتماع Sociology of Sociology ويتضح هذا الاساس النقدى الجديد اذا ما تتبعنا النظرية النقدية لألفن جولدنر خطوة اخرى .

يذهب جولدنر الى ان النظريات الاجتماعية تحوى عنصرين منفصلين : القضايا او المقولات النظرية Postulates وهى صلب النظرية وهى قضايا مصوغة بطريقة واضحة محددة ، ثم الافتراضات العامة assumptions background وتمثل الخلفية التى نبعت منها القضايا النظرية . وهذه الافتراضات العامة تظل كامنة فى وعى المنظر لا تظهر على السطح ولكنها تؤثر فى صياغة القضايا النظرية . فالنظرية تتحكم فيها عملية اكثر تعقيدا من قوانين المنهج العلمى . ان هناك مجموعة من الافتراضات كامنة فى مشاعر المنظر وكيانه ووعيه وهى تؤثر تأثيرا كبيرا على صياغته للنظرية . والافتراضات نوعان : افتراضات عامة تتكون من أفكار الافراد عن العالم ، كأن تذهب مثلا الى القول بأن العالم وما يحويه من أشياء قائم على الوحدة او التعدد أو أنه على درجة عالية من التكامل والاتساق بصرف النظر عن وحدته او تعدده . اما النوع الثانى من الافتراضات فهى الافتراضات النوعية domain assumptions وهى ذلك الجانب من الافتراضات العامة التى تنطبق على ميدان معين كأن تذهب الى القول بأن الانسان رشيد او لا رشيد ، وأن العالم ثابت أو متغير ، وأن المشاكل يمكن أن تحل نفسها بنفسها دون تدخل مقصود ، وأن السلوك البشرى لا يمكن التنبؤ به .. الخ (٣١) .

ويعتقد جولدنر أن عالم الاجتماع يستخدم ويتأثر بهذه الافتراضات فى صياغته للنظرية . اذ انه يتشربها خلال التنشئة الاجتماعية بدءا من تعلم اللغة وطول حياته . فعندما يعرف الطفل — فى الولايات المتحدة مثلا — شيئا عن الزنوج ، فانه يتعلم أيضا بعض الافتراضات العامة عنهم — من

---

(٣١) Ibid., pp. 29–31

١ ــ انه كراديكالى فى جيل تأثر بأفكار اليسار الجديد ، لا يفصل بين الفكر والعمل ، بين محاولات تغيير الواقع ومحاولات تغيير النظرية . ونلاحظ هنا تشابها بين أفكار اليسار الجديد وبين افكار جولدنر ، رغم أن جولدنر يتهم زعماء اليسار الجديد بمعاداة الفكر .

٢ ــ النقد الذى يطالب به جولدنر ليس نقدا من أجل النقد ، وانما يستهدف فى النهاية ان يخلص النظرية من اطارها المحافظ التقليدى وأن يبرز ما تحويه من جوانب ليبرالية تكون أساسا لنظرية جديدة .

٣ ــ من المتوقع بناء على هذا أن تكون النظرية الجديدة ــ التى لم يتوصل اليها جولدنر بعد ــ مجرد استنباط لعناصر من التراث القديم وتطوير لها . انه يود أن يقوم بنفس مهمة ماركس اذا شبهنا النظرية المعاصرة بالهيجلية فى القرن ١٩ ، فرغم أن الهيجلية كانت فلسفة تسلطية محافظة ، الا ان ماركس استطاع أن يستخلص منها جوانب ثورية غيرت وجه العالم .

٤ ــ أن نقد علم الاجتماع لا ينفصل عن نقد المجتمع . ولقد استهل جولدنر اول فصل من كتابه بعبارة قال فيها « لا يمكن أن نفصل بين نقد المجتمع وتحوله وبين نقد النظرية التى تفسر هذا المجتمع » فالنظرية ما هى الا نتاج مجتمع ، واذا تغير أى منهما لابد ان يغير الآخر . ولا يعنى ذلك أن ننتظر الى أن يتغير أى منهما ، بل لابد ان نفرض عليهما هذا التغير من خلال نقد النظرية وبذل الجهود لتغيير العالم . معنى ذلك أن نقد النظرية يجب أن يسير بجانب نقد المجتمع من أجل الوصول فى النهاية الى نظرية ليبرالية تفسر مجتمعا متحررا من قيود القهر الرأسمالى .

٥ ــ وأخيرا فان النقد الذى يدعو اليه جولدنر ليس نقدا كلاسيكيا وانما نقد يقوم على أساس جديد . فلابد أن يتم هذا النقد من خلال ربط

النقد فى هذه الحالة يصبح ضربا من ضروب سوسيولوجيا علم الاجتماع . ولقد اشتق جولدنر مفهوما يعبر عن هذا النوع من الدراسة أطلق عليه « علم الاجتماع الانعكاسى » (٣٤) . Reflexive Sciology . ولتفسير مايقصده بهذا المفهوم ميز جولدنر بين شكلين من اشكال العالم الاجتماعى يتصلان بعمل المنظر : الاول هو العالم المتاح permitted أو السوى normal ، والثانى هو العالم غير المتاح unpermitted (أو غير السوى abnormal) ويبدأ الباحث فى صياغة النظرية عندما يرى امكانية ظهور الشكل الثانى غير السوى ، بحيث يبذل محاولة لتحويل العالم غير السوى الى عالم سوى ، ومن ثم يضفى صفة « السواء » على العالم (٣٥) . معنى ذلك ان النظرية تنشأ من خلال الصراع بين بناءين يهدد كل منهما الآخر . ويتخذ الباحث موقفا من هذين البناءين بحيث ينحاز الى أى منهما وينظر الى الآخر على أنه يهدد البناء الذى يعتبره سويا . فالنظرية تقوم اساسا على رؤية متحيزة حيث يمكن ان يكون العالم غير السوى سويا فى رأى شخص معين ، ويكون العالم السوى عالما غير سوى فى رأى شخص آخر وهكذا . وهذه التفرقة بين شكلى العالم تؤكد ما ذهب اليه جولدنر آنفا من أن النظرية السوسيولوجية تضرب بجذورها فى بناء الاحاسيس والدوافع عند الباحث ، تلك التى تكون انعكاسا لافتراضات عامة ونوعية مرتبطة ببناء معين .

بناء على ذلك تكون المهمة التاريخية المنوطة بعلم الاجتماع الانعكاسى هى أن يحول من اتجاه عالم الاجتماع ويجعله يتأمل بعمق فى حياته وعمله اليوميين ، وأن يكون على وعى بامكانية انعكاس حياته اليومية وافتراضاته العامة والنوعية فى نظريته وبحوثه . ان علم الاجتماع الانعكاسي ما هو

---

(٣٤) لم أجد ترجمة لهذا المصطلح افضل من هذه الترجمة ، التى قدمها السيد الحسينى فى عرضه لكتاب جولدنر (المجلة الاجتماعية القومية ، العدد الأول ١٩٧٣) ومن الترجمات الأخرى التى يقترحها : علم الاجتماع الاسترجاعى ، وسوسيولوجيا الذات .

(٣٥) Ibid., p. 484

الا اداة نقدية يمكن من خلالها تصحيح مسار علم الاجتماع ، فاذا كانت النظرية تعكس الافتراضات التى يتشربها الباحث من خلال ثقافته ، ومن ثم تقوم على رؤية متحيزة ، واذا كانت هذه الرؤية المتحيزة قد سارت فى علم الاجتماع الغربى فى تيار الاتجاه المحافظ المرتبط بالنظام والقهر ، فان الخطوة الاولى فى تصحيح مسار العلم ليصبح أكثر تحررا وليبرالية هى ان يحقق الباحثون قدرا من الوعى الذاتى بطبيعة عملهم وبالقوى المحيطة به والمؤثرة فيه . وعلم الاجتماع الانعكاسى هو الذى يمنحهم هذا الوعى . ويتسم علم الاجتماع الانعكاسى بمجموعة من الخصائص يمكن اجمالها فيما يلى(٣٦) :

١ ــ انه علم راديكالى بالضرورة ، ويجب ان يكون كذلك . فهو يدرك أن المعرفة بالعالم لا يمكن ان تتقدم دون معرفة الباحث عن ذاته وعن وضعه فى هذا العالم ، ودون جهود هذا الباحث لتغيير العالم . ومن خلال هذا الوعى بالذات وبالعالم يمكن التعرف على نوعية العالم المغترب خارجنا وداخل انفسنا ومن ثم نمتلك القدرة على تغييره او تجاوزه . وليس المقصود بكلمة « راديكالى » انه علم نقدى فقط ، ولكن المقصود بها انه يهتم الى جانب ذلك بتقديم صياغات ايجابية لمجتمعات جديدة ، ويوتوبيات جديدة ، يستطيع أن يعيش فيها الانسان فى ظروف أفضل ، كما يرتبط بالحياة اليومية ، ويدين السلوك الامبريالى ويقدم مطالب من اجل القضاء على مظاهر الحرمان الجماهيرى .

٢ ــ من خلاله يستطيع الباحثون ان يتجاوزوا التراث المعاصر . فمن خلال تعميق وعينا عن واقعنا كعلماء اجتماع وفهمنا لهذا الواقع نستطيع أن ننتج جيلا جديدا من علماء الاجتماع قادرا على فهم العلم بطريقة أفضل .

٣ ــ يمكننا هذا العلم النقدى من أن نتجاوز ذلك الفصل بين الذات

---

(٣٦) Ibid , pp. 486—509.

والموضوع ، واعنى الفصل بين البـــاحث ومادة دراسته . فالبـــاحث يستطيع أن يدرك انه جزء من العالم وأن احاسيسه ومشـــاعره هى احاسيس ومشاعر الآخرين . ويتطلب ذلك وجود بعد امبيريقى يركز على دراسة علم الاجتماع ذاته وعلمائه ، وادوارهم المهنية ، والمؤسســـات التى ينتمون اليها ، ودرجة ارتباطهم بانساق القوة ، وثقافتهم الفرعية ، وموقفهم من العالم بصفة عامة .

٤ ــ يقوم علم الاجتماع الانعكاسي على الوعى بتناقض اســـاسى مؤداه أن هؤلاء الذين يسهمون بنصيب الأسد فى التطور النظامى لعلم الاجتمـــاع هم انفسهم الذين يحرفون اسلوب بحثه عن المعرفة . فالنـــاقد ذو الرؤية الانعكاسية يدرك أن تطور علم الاجتماع يرتبط بالتدعيم المجتمعى الذى يسمح بالتطور فى اتجاهات معينة ، ويضع حدودا على اتجاهات اخرى ومن ثم يشوه ويحرف طابع العلم ، ومن ثم يدرك أن القوى التى تحرف العلم هى قوى معادية عليه أن يواجهها .

٥ ــ ان مسألة الأفكار والقوى المعادية تجعله يتخذ موقفا من قضية التحرر من القيم ــ ربما لان هذه القوى قد استخدمتها استخداما سيئا . ان الباحث ذا الرؤية الانعكاسية يتشكك فى جدوى التحرر من القيم ، غير انه يدرك فى ذات الوقت اخطار الالتزام بالقيم . ومع ذلك فانه يقبل اخطار الالتزام ، لأنها اخف وطأة من تحريفية التحرر من القيم .

٦ ــ اتصالا بموضوع القوى المادية يكون الباحث ذو الرؤية الراديكاليـــة الانعكاسية على وعى بالتأثيرات الأيديولوجية والسياسية المتصـــلة بعمل عالم الاجتماع . وبذلك يكون قادرا على التمييز بين الأيديولوجية القائمة على القهر والأيديولوجية القائمـــة على التحرر . ومع ادراكه لانحراف الليبرالية الأمريكية المعاصرة ، وتحكمها فى مصير علم الاجتماع والجامعة ، فان المهمة المنوطة بالباحث ذى الرؤية الانعكاسية هى ان يقوى الوعى النقدى بطابع الليبرالية المعاصرة ، وبالعلاقة الجدليـــة

بين سياسات الحرب والرفاهية Welfare and Warfare Politics والدور الليبرالى الذى يقوم به عالم الاجتماع « كبائع بحوث » على حساب كل منهما .

٧ ــ ومن الناحية الاخلاقية يؤكد علم الاجتماع الانعكاسى على القوى الخلاقة للباحث ، والتى تعارض المجاراة التى تفرضها النظم القائمة والتنظيمات المهنية ، والهيبة الجامعية . فالباحث هنا لا يخضع لأى سلطة ولا يسمح لأى قوة أن تتحكم فى تفكيره .

٨ ــ يدرك الباحث ذو الرؤية الانعكاسية أهمية الحس التاريخى . فهو ينظر الى الأفراد على أنهم يتشكلون من خلال ماضيهم المشترك ، ومن خلال اندماجهم فى ثقافات مشتركة وانساق اجتماعية مشتركة . ولكن ليس معنى ذلك أن الأفراد يعيشون فى خضوع تام للقوى الاجتماعية أو أنهم يتحكمون فى العملية التاريخية تحكما مطلقا ، ولكن ذلك يعنى ان هناك أجزاء شاسعة داخل هذا العالم تعد ملكا للأفراد ، واهمها على الاطلاق الثقافة والمجتمع . ومن ثم فان أحد مهام علم الاجتماع الانعكاسى تنحصر فى مساعدة الأفراد فى نضالهم من أجل تملك هذه الأجواء والسيطرة عليها .

هذه هى اهم الأسس التى يقوم عليها علم الاجتماع الانعكاسى ، أداتنا الجديدة فى تغيير النظرية ، وتغيير العالم الذى تفسره هذه النظرية . وتجدر الاشارة الى ان جولدنر قد سار خطوات فى كتابه « الأزمة القادمة » فى نقد نظرية علم الاجتماع من خلال هذا الأساس النقدى الجديد . فقد كان جهده لتشخيص الأزمة القادمة للعلم جهدا نقديا فى المحل الأول على ما المحنا فيما سبق . فقد حاول أن يبرز التناقضات التى يخبرها النسق النظرى للعلم فى تفاعله مع الظروف والقوى المحيطة به : الافتراضات الثورية بما تخلقه من تناقضات مستمرة فى بناء العلم ، الدولة بما تفرضه على العلم من حدود ، الأيديولوجية التى تجعله يتخذ مسارا محافظا مهملا جوانب كثيرة ، الوفاق

بما يفرضه من تقارب بين وجهات النظر الماركسية والوظيفية . وفضلا عن ذلك قدم جولدنر عرضا بنائيا تطوريا نقديا لنشأة العلم الاجتماعى منذ ظهور الوضعية السوسيولوجية على يد أوجست كونت ، ومرورا بالماركسية ، وعلم الاجتماع الكلاسيكى (دوركايم — فيبر) وحتى البنائية الوظيفية البارسونزية . ولادراكه لمدى السيطرة والانتشار اللذين تمارسهما الأخيرة قدم جولدنر — وفى قسم كامل من كتابه — عرضا نقديا ممتازا لنظرية بارسونز .

وقد يتساءل البعض : لماذا لم يقدم جولدنر بديلا نظريا بدلا من الاغراق فى هذا الجدل فى محاولته ارساء أساس نقدى جديد ؟ رغم أننا نستطيع أن نشتق اجابة لهذا السؤال من عرض جولدنر لمفهوم « علم الاجتماع الانعكاسى » حيث اكد انه ليس علما نقديا فقط ، وانما يهدف الى اقامة نظرية جديدة من خلال نقده المستمر للعلم والعالم . الا اننا سنأخذ الاجابة على هذا السؤال من كتاب حديث لجولدنر بعنوان For Sociology (٣٧) ، حيث كتب يقول « .. ان الشىء الحيوى ليس التوصل الى موقف نظرى بديل . ولكن الشىء الملح هو تأسيس (خلق) الظروف الانسانية التى تفرز البدائل النظرية والفكرية الجديدة ، والنماذج التحليلية الفنية الجديدة ، والنظريات الوسطى الجديدة ، أو حتى الابستومولوجيات الجديدة . وتعنى كلمة تأسيس هنا أن المرء يريد فهما نقديا مقنعا لنوع الظروف الانسانية المفضلة ، ويعنى أيضا وضع هذا الفهم فى نطاق الممارسة الفعلية ، انه يعنى بذل الجهد لتجسيد هذا الفهم فى تجمعات فكرية جديدة ومؤسسات جديدة . ومع ذلك فان هذين النوعين من النشاط (الفهم والممارسة) ليسا منفصلين يأتى احدهما بعد الآخر . ويمكن أن نعتبر الفصل الأخير من كتاب « الازمة القادمة »

---

(٣٧) A. Gouldner, **For Sociology, Renewal and Critique in Sociology today**, Penguin Books, 1975. First Published by Allen Lane 1973.

بمناقشته الشاملة لعلم الاجتماع الانعكاسى بمثابة اسهام فى مثل هذا الجهد(٣٨) » .

ولقد بدا جولدنر فى هذا الكتاب دعوته الى انشاء تجمعات فكرية تدور فيها مناقشات حرة بين المنظرين . ذلك لأنه يرى أن مثل هذه التجمعات ضرورية لتهيئة الظروف الاجتماعية والانسانية التى يمكن أن تقوم عليها النظرية الجديدة والمجتمع الجديد . ولهذه المهمة جانبان : جانب نقدى جدلى ، فالتجمع النظرى يجب أن يحدث شرخا فى العالم الاجتماعى ، بحيث ينفصل نفسه عن التعريفات التقليدية الشائعة عن الواقع الاجتماعى وان يناضل من أجل القضاء على النظم والظروف التى تحافظ عليها ، وأن يحمى نفسه دائما من الهجوم المضاد . وجانب ايجابى بناء يمكن من خلاله أن نبدأ فى تكوين تجمعات نظرية تستطيع أن تغذى تدعيم المحادثات الحرة الرشيدة بشأن علم الاجتماع والواقع الاجتماعى(٣٩) .

فجولدنر يعتقد أن المشكلة التى تواجه علماء الاجتماع فى الوقت الحاضر هى العلاقة المتبادلة بين النظرية والممارسة ، بين الفكر والعمل . ويعتقد اننا نستطيع ان نكسر هذه الفجوة من خلال بذل الجهود فى اقامة تجمعات نظرية جديدة . فالتنظيم — والتنظيم الاجتماعى وحده — هو القادر على أن يكون همزة الوصل بين الفكر والعمل « فعلم الاجتماع فى الوقت الحاضر لا يحتاج الى كارل ماركس ، أو نيوتن ، وانما يحتاج الى لينين(٤٠) » . « فنقد النظرية يتطلب بالضرورة تغيرا فى التنظيم الاجتماعى الذى تنبثق منه النظرية فى ضوء التعضيد الذى يمكن ان تقدمه المناقشات الحرة الرشيدة . والمعرفة التى تتطلبها هذه المهمة سوف يكون لها تأثير كبير فى تغيير النظرية والعالم على حد سواء(٤١) » .

---

(٣٨) Ibid., p. 78

(٣٩) Ibid., pp. 78—79

(٤٠) Ibid., p. 80

(٤١) Ibid., p. 81

وربما يكون جولدنر قد بدأ فعلا فى انشاء هذه التجمعات النظرية منذ ان بدأ عمله فى جامعة امستردام عام ١٩٧٤ ، فقد بدأ فى الاشراف على تحرير مجلة بعنوان « النظرية والمجتمع » Theory and Society حيث كتب جولدنر فى تقديمه للعدد الأول من المجلد الأول لهذه المجلة مقالا بعنوان « نحو موضوعية جديدة » (٤٢) . أوضح فيه ان كل المقالات التى تضمنها هذا العدد الاول تدعو الى ضرب جديد من ضرورب الموضوعية يختلف عن ذلك الذى ينادى به علم الاجتماع المرتبط بالليبرالية . ذلك لأن التغيرات النظرية والبنائية تهيىء الجو للتخلى عن الأطر النظرية القديمة بما تدعيه من التحرر من القيم . فعلى المستوى النظرى لم تعد النماذج التحليلية القديمة مقنعة ، كما أن هناك الكثير من النماذج المحدثة تتحداها وتدخل معها فى صراع عميق وعلى المستوى البنائى فان ظروف العصر تثرينا بالاحداث التى تضع كل السياسات القديمة موضع تساؤل . وأول هذه الأحداث هى سياسة الوفاق detente التى سيدفع ثمنها كل شعوب العالم ، حيث سيقاسى الامريكيون من ارتفاع تكاليف المعيشة وسيقاسى الروس من فقدان حرياتهم السياسية والمدنية . أما ثانى هذه الاحداث فهى حرب يوم الغفران وما صاحبها من استخدام العرب للبترول كسلاح اقتصادى ، وهى أحداث تعد بمثابة مؤشر على أن الوعى القومى يخبر تغيرات جذرية تحتم علينا اعادة النظر فى كل سياساتنا القديمة . اما ثالث هذه الاحداث فهو فضيحة ووترجيت . فهى ليست مجرد فضيحة عابرة، ولكنها تعنى فقدان النسق السياسى الامريكى لشرعيته فى الداخل والخارج. والأحداث الثلاثة تضع الكثير من القيود على قوة امريكا فى العالم .

---

(٤٢) A. Gouldner, «Toward the New Objectivity» An Introduction to Theory and Society» in Theory and Society, Vol. I No. 1, 1974.

ويتكلم جولدنر عن الاعضاء الذين يساهمون بالكتابة فى هذه المجلة على انهم جماعة او تجمع . Community

وكل هذه التغيرات التى تنبىء باختفـــاء الوعى التقليدى القديم تخلق بناء تحتيا جديدا لنوع جديد من الموضوعية فى العلوم الاجتماعية والنظرية الاجتماعية . فاذا كانت الرؤية القديمة تفترض أن الموضوعيـــة تعتمد على العلاقة بين العالم ومنهجه ، ومدى امتثاله لمتطلبـــات هذا المنهج ، فـــان الموضوعية بالمعنى الجديد تعتمد على شىء آخـــر وراء المنـــهج ، وأعنى اختبارات الافـــراد . ان الموضوعية هنـــا لا تختزل الى مســـألة الدليل الامبريقى ، ولكنها تعتمد على تغيير هذا الدليل حسبما هو متفق عليه بين تجمعات العلماء فيما يتعلق بالأمور التى يمكن أن يصدر فيهـــا حكم ذاتى . بنـــاء على ذلك تختفى فكرة الحكم المطلق ، او الحكم الموضوعى المطلق ، ويحل محلها فكرة الحكم القائم على مبدأ النسبية Relativism يرتبط الصدق فيه بطريقة صياغة الأفراد لأعمالهم ، وبطبيعة العمل نفسه الذى يختلف بـــاختلاف الأوضاع الاجتماعيـــة ، والانتمـــاءات الجماعيـــة ، والتنظيمات الجماعية (٤٢) .

ونستطيع مما سبق أن نوسع فى القضية التى طرحنـــاها فى الفصل السـادس ـــ والتى مؤداها أن التغيرات البنائية فى مرحـــلة الستينات قد افرزت ـــ من خلال تفاعلها مع النظريات القديمة ـــ الاتجاهات النقدية . والنقطة التى نود تأكيدهـــا هنا هى أن امتداد هذا التفـــاعل وتطويره هو الكفيل فقط بتطوير النظرية . وقد أكد فكر جولدنر هذه الحقيقة حيث ذهب الى أن تغيير النظرية يتطلب جهودا لتغيير العـــالم ونقـــد الفكر ، بمعنى استمرار عملية الجدل بين القديم والجديد الى أن يفرز هذا الجدل مركبـــا جديدا يختلف عن القديم وعن الجديد . فاذا كانت أحداث الستينات قد كونت البناء التحتى للنظرية النقدية فى علم الاجتماع ، فان التغيرات التى يسردها جولدنر هنا ـــ والتى ترتبط ارتباطا وثيقا بالسبعينات ـــ سوف تكون البناء التحتى للنظرية الجديدة التى ما تزال فى طور التكوين . ويمكن من خـــلال

---

(٤٢) Ibid., pp. III—IV

ما ذهبنا اليه وما ذهب اليه جولدنر أن نستخلص ذلك القانون العام الذى يوضح العلاقة بين الفكر والواقع والذى يصوغ تلك العلاقة فى شكل علاقة طردية ايجابية . فاذا تغير الواقع كان هذا التغير أساسا تحتيا لنظرية جديدة . ولكن هل هذا التفاعل يسير وفق قوانين التاريخ ودون تدخل مقصود ؟ الاجابة بالنفى بطبيعة الحال . فالأيديولوجية الليبرالية المصطبغة بالصبغة المحافظة ، والتى تحكمت لفترات طويلة فى مسار العلوم الاجتماعية، بحيث سمحت لها بالتطور فى بعض الاتجاهات (الاتجاهات التى تحافظ — نظريا — على النظام العام فى المجتمع الراسمالى ، والتى تسخر نفسها — منهجيا وامبريقيا — لخدمة مصالحه ومشروعاته) ، ضعف التطور فى اتجاهات أخرى (الاتجاهات النقدية الثورية ذات الاهداف التحررية والانسانية) ، هذه الأيديولوجية تحاول الآن أن تعرقل الحركة النقدية بشتى الوسائل وأن تفرض عليها حدودا كثيرة خاصة بعد أن بدات تلك الاخيرة تحقق نجاحا غير متوقع . وهى بذلك تتدخل فى حركة التاريخ وتعرقل مساره . ولذلك يجب ان يكون التغير مقصودا ، ويجب أن يتسلح العلماء بالوعى الذاتى فى مواجهة عداء الليبرالية الامريكية المعاصرة التى تشن عليهم هجوما مستمرا . ليس ادل على ذلك من الهجوم العنيف الذى تعرض له جولدنر من العلماء المحافظين فى المؤسسة الاكاديمية لعلم الاجتماع الغربى ، والذين يرتبطون ارتباطا وثيقا بالليبرالية المحافظة على ما سنرى فى الفقرة القادمة .

ثالثا — جولدنر فى مواجهة نقاده :

لا نستطيع أن نجزم بالقول بأن كل نقاد جولدنر ينتمون الى التيار المحافظ . فهناك من العلماء من تفهم المهمة التاريخية لعلم الاجتماع النقدى ، وهم وان نقدوا جولدنر ، الا أن نقدهم يعتبر اثراء للفكر النقدى ، حيث دفع جولدنر الى أن يستوضح الكثير من أفكاره . ان هؤلاء النقاد هم

الذين يعيشون من أجل علم الاجتماع (٤٤) . أما الذين يتعيشون عليه فهم أولئك الذين لم يقبلوا حركة التجديد والنقد التى يتزعمها جولدنر . بل انهم وقفوا لها بالمرصاد فى محاولة لايقاف وتطويق حركة التاريخ التى تسير فى غير صالحهم . ومن هنا ينقسم النقد الذى تعرض له جولدنر الى نوعين : النوع الاول يتعاطف مع الحركة النقدية ويعضدها ، والثانى يجسد رد فعل التيار المحافظ تجاه الحركة النقدية . ونتناول هذين النوعين على النحو التالى :

النوع الأول :

يمثل هذا النوع النقد الذى قدمه كل من ريتشارد فلاكس Flacks وآلان تورين Touraine وموريس زايتلن M. Zeitlen وارتكز هذا النقد على خمس نقاط رئيسية(٤٥) :

١ — رغم أن جولدنر قد قدم نقدا لأهم المواقف النظرية المعاصرة الا انه لم يعط البديل لهذه النظريات التى نقدها .

٢ — ان جولدنر يركز على نقد النظرية ، دون أن يهتم بنقد المجتمع .

٣ — لم يول جولدنر اهتماما كبيرا للماركسية كجزء من الفكر السوسيولوجى .

---

(٤٤) كتب جولدنر فى مقدمة كتاب « الازمة القادمة » يقول : « ان الذين يحبون النقد هم الذين يعيشون من أجل علم الاجتماع For Sociology أما الذين يمقتون هذا النقد فانهم يتعيشون عليه » وربما يكون جولدنر قد اشتق عنوان كتابه For Sociology من هذه العبارة السابقة لكى يؤكد لناقديه أنهم يتعيشون على العلم ، هذا اذا لم يكن العنوان يسير على غرار كتاب لويس التوسير L. Althusser بعنوان For Marx حيث يعتقد جولدنر ان تراث علم الاجتماع يحتاج الى نفس المراجعة التى قام بها التوسير للماركسية .

(٤٥) ظهر هذا النقد فى تعليقات مفصلة نشرها هؤلاء العلماء فى العدد الثانى من المجلد السابع والسبعين من المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع . انظر :

American Journal of Sociology, Vol. 77. No. 2, 1971

٤ — لم يوضح بالتحديد العلاقة بين النظرية والممارسة ، أو الجهود التى يمكن أن يتجاوز الأفراد من خلالها الحالة التى يعيشونها وان يحرروا أنفسهم منها .

٥ — في معالجته لمشكلة الموضوعية ازال جولدنر الحد الفاصل بين الأيديولوجيا والعلوم الاجتماعية .

ولان هذا النقد قائم على التعاطف والخوف على العلم ، فانه لم يغضب جولدنر بل دفعه الى أن يعيد تأكيد بعض القضايا التى طرحها وان يزيدها توضيحا ، وان يحدد موقفه بدقة من بعض القضايا التى اثارها النقد(٤٦) .

١ — فيما يتعلق بتقديم بديل نظرى ذهب جولدنر الى أن اطاره النقدى له جانبان : الجانب الأول جدلى نقدى يهدف الى احداث توتر وصراع داخل كل المحددات التقليدية للواقع الاجتماعى ، والى النضال ضد الظروف الاجتماعية والنظم التى تحافظ على هذه المحددات . والجانب الثانى بناء يهدف الى اقامة الظروف الجديدة والنظم الجديدة التى تكون أساسا تحتيا لنظرية جديدة ونقطة البداية فى هذا الطريق هى انشاء تجمعات نظرية جديدة تدور فيها مناقشات حرة رشيدة حول علم الاجتماع والنظرية الاجتماعية .

٢ — فيما يتعلق بقضية نقد المجتمع اعاد جولدنر تأكيد ما ذهب اليه فيما سبق من أنه لا يفصل بين نقد العلم ونقد المجتمع . فنقد وتجديد علم الاجتماع يعنى نقد واعادة بناء المجتمع،لان نقد النظرية يعنى نقد الواقع الذى أفرز هذه النظرية ، ومحاولة تجديدها لا تنفصل عن تجديد هذا الواقع . ولقد دفع ذلك جولدنر الى أن يحدد بكلمات صريحة هدف تشييد النظرية فى علم الاجتماع . « . . فالغاية النهائية لنظريتنا الاجتماعية وممارستنا العملية هى تحقيق الكمال الانسانى والتحرر

---

(٤٦) A. Gouldner, For Sociology, op. cit., pp. 86-127

الانسانى ، ونحن لا نفهم هذا التحرر على أنه تحرير للعقل فقط ، ولكن تحرير الانسان والعقل على حد سواء » (٤٧) . وهكذا يصبح علم الاجتماع عنده — تماما مثلما هو عند رايت ميلز — علم انسانى يهدف الى أن يحرر عقل الانسان من اية قوى داخلية او خارجية ، او رمزية أو نفسية أو اجتماعية ، بحيث لا يكون فى حياته اى ضرب من ضروب المعاناة . ويتطلب تحقيق هذا الهدف — ضمن أشياء أخرى — الا يفصل بين الذات والموضوع ، الا يسير على هدى القضية التقليدية فى علم الاجتماع الاكاديمى والتى تذهب الى ان علم الاجتماع هو اكتشاف المعرفة الصادقة عن العلاقات الانسانية ، والتفاعل الاجتماعى والجماعات الاجتماعية (٤٨) . ذلك أن الباحث هو نفسه جزء من العالم الذى يدرسه ، والمعرفة التى يقدمها ليست اكتشافا ، وانما هى تأكيد أو اعادة صياغة لما هو قائم : فى حديث الأفراد ، ولغتهم ، وخبرتهم ، وعملهم . ان كل ما يقوم به الباحث هو تنظيم واعادة صياغة المفاهيم الموجودة فعلا فى الواقع (٤٩) .

٣ — حدد جولدنر — فى مواجهة نقاده — علاقة علم الاجتماع بالحركة الاجتماعية ، وبالاشتراكية . لقد اعتقد فلاكس أن علم الاجتماع يساهم فى الحركة الاجتماعية ، وخاصة الاشتراكية عن طريقين : عن طريق امدادها بالمعلومات المختلفة واجراء البحوث التى لايمكن أن تخدم غايات الحركة الاجتماعية . ويرى جولدنر ان كلا الطريقين على جانب من الاهمية غير أنه يقول « .. لا يمكن أن يصبح علماء الاجتماع بأى حال من الأحوال « باحثى سوق » يساعدون افراد الحركة الحركة الاجتماعية

---

(٤٧) Ibid., p. 101

(٤٨) أكد فيما سبق أن هذه القضية قد نبعت من تصور دوركايم للعالم الخارجى على انه مجموعة من الأشياء المنفصلة عن ذات الباحث .

(٤٩) يعكس ذلك تأثر جولدنر بالاتجاهات الفينومينولوجية فى علم الاجتماع والتى بدأت على يد الفرد شوتز وبيتر بيرجر ووصلت الى ذروتها فى اتجاه « منهجية الجماعة » (الأثنوميثودولوجى) الذى تزعمه جارفينكل منذ نهاية الستينات .

او الاشتراكيين على أن يعوا اهدافهم التى يودون تحقيقها . وعوضا عن ذلك فانني أعتقد أن علماء الاجتماع يجب أن يساعدوا الحركة الاجتماعية والاشتراكيين فى التحرر الانسانى . وبقدر سعيهم لتحقيق هذا الهدف يجب أن يعوا المصاعب والمخاطر وجسامة التكاليف والنتائج المضادة التى تفرزها الحركة(٥٠) .

وهكذا يوافق جولدنر على دور عالم الاجتماع فى الحركة الاجتماعية ، بل انه يوحد بين دور الباحث ودور الحركة . فاذا كان قد ذهب الى أن المهمة المنوطة بالباحث فى علم الاجتماع هى تحرر الأفراد من اى معاناة او اى مظاهر للقهر والتحكم ، فانه هنا يشترط فى الحركة الاجتماعية — لكى تستحق تدعيم الباحث الاجتماعى — أن تكون لها نفس هذا الغرض التحريرى .

٤ — حدد جولدنر علاقة النظرية بالأيديولوجية . فالنظرية تعتبر فى احد جوانبها ايديولوجية . فهى — من ناحية — تسعى الى ان تتخطى بعض المصالح فى العالم ، وتقدم لغة تعبر عن المصالح التى تدعمها والمصالح التى تتخطاها . ومن الناحية الأخرى فان هذه اللغة تجعل الأفراد قادرين على أن يعوا الاستخدامات الأيديولوجية للغة العادية ، وأن يعوا نوعية المصالح التى تحاول هذه الاستخدامات ان تطمسها وتخفيها . والنظرية بهذا المعنى تقوم بنفس الدور الذى تقوم به الأيديولوجيا فى فهم الواقع وتغييره . ويفرض ذلك على الباحث دورا معينا يحدد التزامه فى المجتمع الذى يعيش فيه . يتحدد هذا الدور فيما يلى :

(أ) يلتزم الباحث ببناء جماعته التى ينتمى اليها ، كما يلتزم بأن يخلق الظروف الملائمة للمناقشات الحرة الرشيدة ، التى يستطيع من

---

(٥٠) Ibid., p. 107

خلالها — بالاشتراك مع زملائه — أن يفهموا الواقع الاجتماعى الذى يواجههم .

(ب) يجب أن ينخرط الباحث فى الممارسة السياسية التى تجعله يدخل فى علاقات صراع وتوتر ومقاومة للسلطة القائمة والنظم الثقافية القائمة ، وهذه العلاقات سوف تساعده على تخطى التحديدات التقليدية للواقع الاجتماعى .

(ج) أن يربط نفسه بشريحة اجتماعية محددة ، وأن يسهم فى الحركة الاجتماعية التى تمثلها هذه الشريحة خاصة اذا كانت هذه الحركة تهدف الى تحرير الانسان .

(د) يجب أن يحكم العلاقة بين الباحثين من ناحية ، والحركات الاجتماعية أو الأحزاب السياسية من ناحية اخرى مبدأ استقلال كل منهما تنظيميا ، وأن يكون التعاون فيما بينهما من خلال الالتزام المشترك بالتحرر الانسانى .

(هـ) يجب ألا يخضع المنظر لنظام حزب سياسى معين أو تنظيم سياسى معين اذا كان هذا التنظيم أو ذلك الحزب يفرض رقابة على انتاج الباحث وعمله كمنظر .

النوع الثانى :

يمثل النقد هنا وجهة النظر الأخرى ، أو رد الفعل المحافظ تجاه حركة التجديد والنقد التى يقودها جولدنر وزملاؤه فى علم الاجتماع الغربى . وقد تمثل رد الفعل هذا فى اصدار عدد كامل من « المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع » لنقد كتاب جولدنر « الأزمة القادمة » (٥١) . وقد تصدى لهذه المهمة جماعة

---

(٥١) صدر هذا العدد فى يوليو عام ١٩٧٢ ، ويذهب جولدنر الى أن النقد الذى جاء فى هذا العدد ليس موجها تجاه كتابه فقط ، وانما يمثل رد فعل علم =

من غلاة المحافظين وعلى رأسهم سيمور مارتن ليبست Lipset وايفـــرت لاد E. Lade وهوارد بيكر H. Becker وروديس وهوروتز Rhoads Horowitz

* حاول ليبست ولاد فى مقالهما أن ينفيا ماذهب اليه جولدنر من أن الاتجاه الوظيفى فى صورته البارسونزية هو الاتجاه المسيطر فى علم الاجتماع الأمريكى. كما دافعا عن اتهـــام بارسونز بأنه مرتبط بالاتجاه المحـــافظ ذاهبين الى أن بارسونز نفسه كان راديكاليا فى شبابه ، واكدوا على الطابع الليبرالى لعلم الاجتماع(٥٢) .

* اما روديس فقد نفى وجود أزمة فى علم الاجتماع ، واتهم جولدنر بأنه أساء فهم الوضعية والوظيفية وخاصة الصورة البارسونزية لها (٥٣) .

* اما بيكر وهوروتز فانهما اتهما جولدنر بانصرافه عن نقد المجتمع الى نقد النظرية(٥٤) .

وقد اعتبر جولدنر أن مقال بيكر وهوروتز هو افضل هذه المقالات واكثرها

= الاجتماع الغربى الأكاديمى تجاه علم الاجتماع الراديكالى النقدى . فلم يكن عددا تقليديا وانمـــا كرست جهود كبيرة لاخراجه بحيث دعا بوتومور لكتابة التعليق على المقالات للتظاهر بالموضوعية وذلك لكى يصرفوا الأفراد والتجمعات العلمية عن الاهتمام بعلم الاجتماع الراديكالى . **انظر كتاب جولدنر** « من أجل علم الاجتماع » السابق الاشارة اليه ، ص ١٢٩ .

(٥٢) S.M. Lipset and E.C. Lade, Jr, «The Politics of American Sociologist», A.J.S, Vol. 78. No. 1, July 1972, pp. 136–155

(٥٣) J. Rhoads, «Gouldner's Coming Crisis of Western Sociology», A.J.S., Vol. 78. No. 1 July 1972, pp. 136—155

(٥٤) H. Becker and A.L. Horowitz, «Radical Politics and Sociological Research ; Observation on Methodology and Ideology», A.J.S., Vol. 78. No. 1 July 1972, pp. 48—69.

موضوعية ، ودافع عن آرائه أمام الهجوم المقصود من جانب هؤلاء الكتاب المحافظين ، واعتبره دليلا على الارتباط الوثيق بين علم الاجتماع وبين الدولة ومؤسساتها . ولن نورد هنا دفاع جولدنر وسوف نكتفى بهذه العبارة التى جاءت فى نهاية هذا الدفاع حيث كتب يقول « .. لا يعترض المرء على الميول السياسية لهؤلاء النقـــاد أو نزعتهم المؤسسية establishmentarianism فقط ، وانما يعترض وبشدة على نوعية التفكير الذى يكشف عنه ، وعلى عجزهم عن مواجهـــة التعقيد الفكرى ، فتفكيرهم لا يكشف عن اى قدر من الشـــفافية sensitivity أو القوة الفكرية . كما يعترض المرء ايضـــا على مستوى جدلهم الذى لا يرتفع عن مستوى كتب المدخل .. ان نوعية تفكيرنا وليست ميولنا السياسية هى التى تضعنا على حافة الهاوية العميقة » (٥٥) .

خـــاتمة :

من هذا العرض لأهم اسهامات جولدنر فى النقـــد السوسيولوجى ، وموقفه فى مواجهة نقاده ، يتضح لنا مدى الحماس الذى يقود به جولدنر حركة التجديد والنقد فى علم الاجتمـــاع ، تلك الحركة التى تستهدف — فى نظره — احداث تناقضات وصراعات فى التراث القديم والأســـاس التحتى الذى يقوم عليه هذا التراث من اجل الوصول الى أساس تحتى جديد تقوم عليه نظرية جديدة . فجولدنر هنا يستشف تلك العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع . فالواقع بما يحويه من نظم وقيم ، ومـــا يغلفه من تيـــارات أيديـــولوجية ينعـــكس فى البنـــاء الشخصى للأفراد . والمنظرون مـــا هم الا مجموعة من الأفراد يعكسون فى نظرياتهم ما استقر فى بناء شخصياتهم من قيم وايديولوجيات ، وما ارتبط بهذا البناء من اهتمامات شخصية . ومع التسليم بهذه القضية فان النظم والمؤسسات والايديولوجية الســـائدة فى المجتمعات الغربية تفرض على المنظرين أن تتجه نظرياتهم وجهة نظر معينة ، وأن تبتعد عن وجهات النظر الأخرى . وقد أدى هذا الوضع بعلم الاجتماع الى الوقوع — أو قرب الوقوع — فى ازمة : فالعلم الذى من المفروض أن

---

(٥٥) A. Gouldner, For Sociology, op. cit., p. 168

يساهم فى تحرير الانسان بدأ يتجـــه نحو الاستخدام السيىء فى اســـتغلال الانسان وكبحه ، ومن هنـــا بدأ يرتبط بالدولة ، ويخلق من نفســـه فلسفة للمجتمع الرأسمالى المحافظ .

ولتخطى أزمة العلم لابد من تغيير النظرية القائمة . وتغييرها لا ينفصل عن تغيير بنائها التحتى . بل أن تغيير هذا البناء التحتى يعد مستلزما أساسيا لتغيير النظرية . ولتحقيق هذا الهدف لابد من حركة نقدية تتجه أساسا نحو البناء التحتى للنظرية لتفقد من خلاله زيف البنـــاء الفوقى لها . والوسيلة الى هذا النوع من النقد الهـــادف تكمن فى أن يحقق البـــاحثون قدرا من « الانعكاسية » فى التفكير والسلوك ، بمعنى أنهم من خـــلال ادراكهم بأن النظرية ما هى الا انعكاس للواقع الشخصى الفرد ، يجب أن يتمعنوا فى أنفسهم وأن يدركوا نوعية القوى التى تؤثر فيهم وتجعلهم يسيرون فى خط نظرى دون الآخر . لابد لهم أن يعكسوا ذواتهم أو يواجهوها مواجهـــة حقيقية ، وذلك من أجل اكتســـاب قدر من الوعى بالذات يجعل البـــاحث قادرا على أن ينقى ذاته من القوى الخارجية المسيطرة وأن يسير بالعلم نحو وجهته الصحيحة ، واعنى نحو تحرير الانسان من ظلم الواقع ومظاهر المعاناة الكامنة فيه .

وعندما يكتسب الأفراد هذا الوعى ، فانه يكون نقطـــة البداية على طريق تغيير البناء التحتى للنظرية . فسوف يسعى هؤلاء الأفراد الى انشاء نظم أكاديمية جديدة ، وتقاليد أكاديمية جديدة ، ومؤسسات علمية جديدة ، بل ان المجتمع برمته سوف تجتاحه موجات متلاحقة من التغير تمس بناءه كله . وفى هذه الحالة يمكن أن نتوصـــل الى نظرية شـــاملة وحقيقية عن المجتمع . فنقد النظرية لا ينفصل عن نقد المجتمع ، وتغييرها لا ينفصل عن تغيير المجتمع . ويدعو جولدنر ـــ كخطوة نحو اكتساب هذا الوعى ـــ يدعو العلماء الى تكوين تجمعات نظرية يديرون فيها حوارا رشيدا يواجهون فيه أنفسهم بحقائق موقفهم . ان جولدنر هنا يدعو الى احداث « ثورة ثقافية » ـــ

اذا جاز لنا أن نستعير من دنيا السياسة — في علم الاجتماع تنتهى بمجموعة محددة من المقولات والقيم يلتزم بها الجميع .

فليس معنى اكتساب هذا الوعى أن يصبح البـــاحث متحررا من القيم فاصلا نفسه عن موضوع دراسته . فضلا عن أنه جزء من هذا الموضوع ، فلابد أن يلتزم بمجموعة من القيم تهدف الى تحرير الانسان فى المجتمع ، وان يربط نفسه بأى جماعة وأى أيديولوجية ، أو أى تنظيم سياسى يتوخى فيه نفس الهدف . ان علم الاجتماع من خلال هذا المنطلق يعتبر علما انسانيا بالدرجة الأولى يهدف الى تحقيق حياة افضل لا يشعر الانسان فيها بأى قهر أو استغلال . وتثار هنا مشكلة الموضوعية . اذ كيف يستطيع المرء أن يحقق دراسة موضوعية من خلال هذا الالتزام . حدد جولدنر مجموعة من المعايير التى يمكن فى ضوئها تحقيق هذه الموضوعية .

هكذا تمثل آراء جولدنر نظرية نقدية متكاملة تضع برنامجا لتجديد علم الاجتماع واعادة صياغته على اسس جـــديدة . والحقيقة اننـــا نتوقع من جولدنر مزيدا من الاستمرار فى هذه الحركة ، ونتوقع منه ان يقوم فى فترة من حياته — وبعد أن يحس أن البناء التحتى للنظرية قد حقق شوطا كبيرا فى طريق التغير — ان يقدم بديلا نظريا . ومن المتوقع ان يكون هذا البديل النظرى تنمية وتطويرا للجوانب الثورية الليبرالية فى علم الاجتمـــاع . هل سيبذل جهدا لتطوير هذه الجوانب وابرازهـــا فى ضوء نظرية متـــكاملة ؟ الاجابة على هذا السؤال ما تزال فى احضان المستقبل .